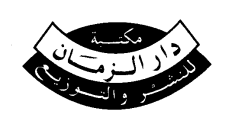
المساجد الجامعة في الإسلام

التي ساهمت في تكوين الحضارة الإسلامية

المسجد الأموي — عصارة الحضارة الإسلامية
المسجد الجامع بالقيروان — قاعدة المسلمين في بلاد المغرب
جامعة الزيتونة — أقدم جامعة إسلامية رعت مواكب العلم والعلماء
الجامع الأعظم بقرطبة — أعظم جامعة إسلامية
جامعة القرويين — أقدم جامعة في العالم
الأزهر الشريف — منارة الثقافة الإسلامية

بقلم
أحمد الشنواني



ح مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع ، ١٤٢٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشنواني، أحمد محمد

المساجد الجامعة في الاسلام التي ساهمت في تكوين الحضارة الاسلامية . / أحمد محمد الشنواني. - المدينة المنورة ،١٤٢٦ هـ

١٩٠ ص٢٤×١٧سم.

ردمك : ٠-١-٩٦٣٨-٩٩٦٠

١-المساجد - تاريخ أ. العنوان

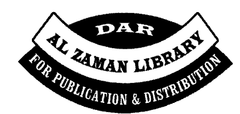
ديوي ٢١٥ ١٤٢٦/٢٣٠٣

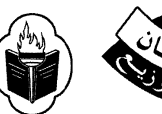
رقم الايداع: ١٤٢٦/٢٣٠٣

ردمك : ٠-١-٩٦٣٨-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م





Saudi Arabia - Madina Munawara - Al-Sitteen Road
Tel: 8366666 - Fax: 8383226 P.O. Box: 1556
Al-Deyafa St. Ext. Abazar St. Tel: 8344946 / 8362993
website: www.daralzaman.com
email : zaman@daralzaman.com

مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة - شارع الستين
هاتف، ٨٣٦٦٦٦٦ - فاكس، ٨٣٨٣٢٢٦ ص.ب (١٥٥٦)
فرع الضيافة - إمتداد شارع أبا ذر هاتف، ٨٣٦٢٩٩٣ - فاكس، ٨٣٤٤٩٤٦
موقعنا على الإنترنت، www.daralzaman.com
البريد الإلكتروني، zaman@daralzaman.com



مقدمة الكتاب

ودراسة تمهيدية عن نشأة المساجد الجامعة في الإسلام ورسالتها

يرتبط تاريخ الثقافة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالمسجد، والفضل في انتشارها وازدهارها إنما يرجع إلى المسجد.

وقد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ حينما هاجر من مكة إلى المدينة هو تأسيس المسجد النبوي الذي صار للمسلمين مسجداً ودار شورى ومدرسة لدراسة شئون الدين والدنيا وبداية انطلاق ونقطة ارتكاز للمجتمع الإسلامي.

وقد اقتصر المسلمون في الصدر الأول على استعمال كلمة المسجد ثم استعملوا كلمة " المسجد الجامع " وبعدئذ اقتصروا على الصفة فقالوا المسجد الكبير الذي تصلى فيه الجمعة " الجامع " لأنه يجمع الناس لوقت معلوم، ولما افتتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى الولاة في العراق ومصر والشام أن يتخذوا مساجد للجماعة ومساجد للقبائل فإن كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة أو المسجد الجامع.

وهذه المساجد الجامعة أو الجوامع كانت في نفس الوقت الجامعات الإسلامية التي بدأت في مختلف حواضر العالم الإسلامي في

تأدية هذه المهمة العلمية الجليلة في عصر مبكر، وكان اضطلاعها بها في البداية من الأمور الطبيعية التي تتفق مع روح الثقافة الإسلامية الأولى، وهي ثقافة كان يغلب عليها الطابع الديني وتقوم في جوهرها على علوم القرآن والسُنة.

وكان من الطبيعي أن يكون المسجد الجامع أو بعبارة أخرى المسجد الرئيسي مركزاً لهذا النوع من الثقافة الدينية في عصر كانت الدولة الإسلامية تتسم فيه بالطابع الديني وتتخذ من الإسلام ورسالته شعارها الرسمي.

فلما انتهى العصر الأول وأخذ الطابع الدنيوي يغلب على الدولة الإسلامية وبدأت العلوم المدنية تأخذ مكانتها إلى جانب العلوم الدينية بقي المسجد الجامع، كما كان في الماضي مثوى لهذه العلوم الجديدة، وتحولت المساجد الجامعة في أنحاء العواصم الإسلامية الكبرى إلى نوع من الجامعات الدينية والمدنية معاً، تدرس فيها إلى جانب علوم القرآن والسُنة، علوم اللغة والآداب وما إليها.

لـذا .. فإن تاريخ المساجد الجامع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الآداب العربية والتفكير الإسلامي ولا يمكن لمؤرخ الآداب العربية والتاريخ الإسلامي أن ينسى الدور العظيم الذي أدته المساجد الجامعة في نشر العلوم والثقافة وفي المساهمة في تكوين الحضارة الإسلامية - ذلك أن المسجد الجامع كان في نفس الوقت المركز الذي تدور من حوله الحياة الاجتماعية والدينية والفكرية والسياسية والاقتصادية ..

وهكذا كان المسجد الجامع هو الجامعة الإسلامية.

المساجد الجامعة والمساجد غير الجامعة :

المساجد الجامعة : وهي قليلة العدد ومحدودة في كل مدينة، على رأسها المسجد الجامع الذي بني عند تأسيس المدن الإسلامية بالإضافة إلى أقرانه التي أقامها الحكام والولاة في أحيائها الجديدة، أو تلك التي

بنيت في المدن والحواضر الأخرى القديمة التي نزلها العرب والمسلمون، وقد اتبع البناء في تخطيط وبناء هذا النوع من المساجد الجامعة أسلوباً معيناً، ونلاحظ أن هذه المساجد كانت في معظم الأحيان أضخم مساحة وأكثر شهرة وأبعد أثراً في مختلف ميادين الحياة للمجتمعات الإسلامية من المساجد الأخرى.

كما نلاحظ أن المسجد الجامع في كل المدن الإسلامية قد حظي بالاهتمام الأوفى والتقدير الكبير من جانب البناء والمهندس المسلم سواء عند اختيار موضعه وتحديد مكانه أو عند تخطيطه وبنائه، فكان مع دار الإمارة أو قصر الحاكم - في معظم الأحيان - يشغلان بؤرة المدينة الإسلامية ومركز الحياة والحركة فيها، فإذا كانت دار الإمارة أو القصر هما منزل الحاكم ومقره الرسمي ومظهر الرئاسة والسلطة في المصر فإن المسجد الجامع هو مركز العبادة الرئيسية ومكان التقاء الإمام بالمسلمين والحاكم بالمحكومين ليس فقط في أوقات الصلاة ولكن خلال العديد من المناسبات الدينية والسياسية بعد أن تنوع وتشعب دوره الذي لعبه بجدارة وقوة وتأثير على مسرح الحياة في العصور الإسلامية المختلفة، لذلك ظل المسجد الجامع يتمتع بهذه المكانة الكبيرة، كما حافظ على توسط مركزه في المدينة الإسلامية حتى بعد اتساع رقعتها وزيادة عمرانها وامتدادها إلى خارج أسوارها التي حدد مساحتها الأولى، وقد أكد ذلك المقدسي الجغرافي العربي عندما زار مدينة القيروان بعد مضي أكثر من ثلاثة قرون على نشأتها.

المساجد العادية : غير الجامعة - والتي عم بناؤها عالم الإسلام كله ريفه وحضره من بينها عدد كبير ألحقه كبار رجال الدولة والفقهاء والعلماء والأمراء أيضاً بقصورهم ودورهم حتى وصل الأمر في بعض الأحيان إلى تخصيص قاعة أو غرفة عادية بالمنزل كمصلى، بالإضافة إلى القاعات التي خصصت للصلاة في الكتاتيب - كما كانت تعرف في المشرق الإسلامي، والتي كان يطلق عليها اسم " المسيد " في المغرب،

وكذلك الإيوانات في المدارس بعد ظهور هذه المؤسسة العلمية وانتشارها، كل هذه الأماكن التي خصصت للصلاة دخلت ضمن أعداد المساجد فأطلق عليها تجاوزاً اسم " المساجد " مما رفع في أعداد المساجد إلى هذه الصورة الكبيرة التي رأيناها في كتابات المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين وغيرهم.

وقد أشارت بعض النصوص التاريخية إلى هذه المساجد الخاصة أو المصليات - إذا صحت التسمية - فذكر المقريزي أن الوزير الفاطمي المعروف يعقوب بن كلس " جعل في داره قراء وأئمة يصلون في مسجد داره" ، بينما وصف ابن جبير الإسكندرية عندما زارها في سنة ٥٧٨هـ، بأنها : " أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس له يطفف، فمنهم المكثر ومنهم المقلل، بالمكثر ينتهي في تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنه من يقول غير ذلك، وبالجملة فهي كثيرة جداً تكون منها الأربعة والخمسة في موضع واحد وربما كانت مركبة وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان ".

وربما قصد الرحالة من كلمة " مركبة " التي أوردها ابن جبير في كلامه بعض المباني التي لم تكن مخصصة للصلاة فقط مثل الكُتاب الذي كان في معظم الأحيان يتكون من قاعة لتعليم الصغار وأخرى للصلاة مع سبيل للمياه، أما المدرسة فقد استعملت إيواناتها الأربع أو أكبرها - على الأقل - مكاناً لإقامة الصلاة كلما حان موعدها، لذلك رأينا المقريزي، كبير مؤرخي مصر الإسلامية وزعيمهم دون منازع يضيف بعض المدارس، كمدرسة السلطان الظاهر برقوق وغيرها من المدارس كالصالحية والحجازية والزمامية والصاحبية والبويكرية والأشرفية وغيرها إلى أعداد مساجد مصر.

وما نريد أن نستخلصه ونؤكد عليه، هو أنه اختلف المسلمون في دوافع وأسباب بناء مساجدهم فإن هذه الأسباب لن تخرج - بأي حال من

الأحوال - هذه المساجد عن مهمتها الأصلية التي أقيمت من أجلها وهي تأدية شعائر الدين الحنيف لا سيما إقامة الصلاة، لأن المساجد بصورة عامة - الجامعة منها والخاصة - تعتبر أهم وأفضل دور العبادة لدى المسلمين، فقد روي عن السيدة عائشة، رضي الله عنها قولها : " أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وان تنظف وتطيب "، لذلك انتشرت هذه المصليات في القصور والدور والمساكن، وتحدثنا النصوص أن بعضاً من أصحابها الذين توفر لهم قسط كبير من العلم والفقه وأصبحوا مؤهلين للتدريس، جلسوا بأنفسهم في مساجد دورهم وقصورهم لتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم وأمورهم أيضاً عند الصلاة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن وجدنا بعضاً من الذميين الذين اعتنقوا الإسلام وحسن إسلامهم مثل يعقوب بن كلس اليهودي والذي أسلم وتفقه في الدين والعلم كان يجلس بنفسه للنظر في ظلامات الرعية بعد صلاة الصبح في كل يوم خلال فترة توليه الوزارة في خلافة كل من المعز وابنه العزيز الفاطميين.

ولم يغب عن ابن خلدون الذي تميزت كتاباته بالعمق والدقة والتحليل لكل ما تناوله من موضوعات بالدراسة والبحث، خاصة ما ورد في مقدمته المشهورة، لم يغب عنه تمييز هذين القسمين من المساجد، فوصف الجامعة منها بأنها عظيمة كبيرة المساحة تتسع لعدد كبير من المصلين الذين يجتمعون فيها لأداء فريضة الجمعة وغيرها من الصلوات العامة في المواسم والأعياد والمناسبات الكبرى الأخرى التي تحتاج فيها المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي في قطر من الأقطار لدعاء المصلين، ويؤم المسلمين فيها الخليفة في حاضرة الدولة أو عامله ومن ينوب عنه من كبار الفقهاء في المدن الأخرى، أما المساجد العادية أو الخاصة فلا تحتاج إلى رعاية الدولة ولا إلى نظر الخليفة لتعيين من يقوم بالإشراف عليها، لأن أصحابها أو من يجد في نفسه القدرة والكفاءة على إمامة المصلين يقوم بهذه المهمة كلما احتاج الأمر، فقال " إن المساجد

صنفان، مساجد عظيمة كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهورة وأخرى دونها مختصة لقوم أو محلة، وليست للصلوات العامة، فأما المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء .. وأما المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان".

تاريخ ظهور المساجد الجامعة

الاهتمام باتخاذ المساجد الجامعة قد بدأ بعد بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، الذي اتخذه المسلمون نبراساً ونموذجاً لهم، فكان عمر بن الخطاب أول من اهتم بتخصيص هذه المساجد الجامعة في البلاد المفتوحة، فيذكر المقريزي أنه " لما افتتح عمر البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك، وكتب إلى أمراء أجناد الشام ألا يتبددوا إلى القرى وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً ولا تتخذ القبائل مساجد، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ".

من ناحية أخرى تروي النصوص أن نفراً من قبائل غافق جاءت إلى عمرو بن العاص خلال ولايته مصر وقالوا : انا نكون في الريف فنجتمع في العيدين، الفطر والأضحى ويؤمنا رجل منا، فأجابهم بإمكانية هذا الأمر، فلما سألوه عن إمامته في الجمعة لم يوافقهم وقال : لا يصلي الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود وأخذ الذنوب وأعطى الحقوق، ومن ذلك القول نلمس الشروط والمواصفات الضرورية الواجب توافرها في شخص الإمام الذي تصح صلاة الجمعة بصورة خاصة من خلفه، ولما كانت مثل هذه الشروط لا تتوافر إلا في القضاة وكبار الفقهاء والعلماء الذين ضربوا بسهم وافر في علوم الدين والشرع لذلك لزم أن تؤدى هذه

الفريضة في المساجد الجامعة التي تؤم المصلين فيها الخليفة نفسه أو يكون تنصيب إمام لها عنده أمراً واجباً، لذلك جعل المقدسي الجغرافي المشهور المسجد الجامع أهم مقومات المدينة الإسلامية، فأشار في حديثه عن بلاد ما وراء النهر إلى أنه توجد مجموعة كبيرة من المدن التي سماها بالقرى الكبرى يتوافر فيها كل معالم ومنشآت المدن الكبرى وأرباضها وأسواقها .. فيما عدا المسجد الجامع الذي ينقصها مما جعلها تفتقد صفة " المدينة " خاصة وأن مذهب أبي حنيفة الذي انتشر في ذلك البلاد يؤكد على ذلك.

لذلك اعتبر المسجد الجامع أهم معالم المدينة الإسلامية بل هو صاحب الفضل في إضفاء صفة " المدينة " على أي مركز حضري إسلامي. فكان الخليفة بنفسه أو من ينوب عنه من أهل العلم والفضل هم وحدهم المؤهلين لإمامة المسلمين في الصلاة في هذه المساجد الجامعة خاصة في يوم الجمعة حتى يمكن القول أن المسجد اكتسب صفة "الجامع " من اجتماع المسلمين فيه لأداء هذه الفريضة وما يتبعها من مراسم كالخطبة مثلا.

كل ذلك يوضح أهمية وجود المسجد الجامع في المدينة الإسلامية وجنة "الجامع" التي ألحقت بالمساجد الرئيسية الكبرى التي كان الرسول العظيم ﷺ وخلفائه من بعده أو من ينوب عنهم يؤمون المسلمين للصلاة فيها لا سيما فريضة يوم الجمعة كما كان مركزاً للقاضي الذي يفصل بين الناس ويقيم حدود الشرع، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ ليفي بروفنسال العالم والمستشرق الفرنسي عندما قال : " إن لفظ مدينة أصله آرامي ويرجح أنه كان يطلق خاصة على المكان الذي يكون فيه القضاء، وقد ذاع منذ ابتداء الإسلام حين حل محل اسم يثرب للدلالة على مقر النبي ﷺ بعد هجرته، فلفظ المدينة إذا رجعنا لهذا الأصل يجب أن يعرف على أنه مركز حضري يحوي بيت العبادة ويجتمع فيه المؤمنون للصلاة الجامعة ويصدر فيه قاضي الجماعة أحكامه ".

الخصائص المعمارية للمساجد الجامعة

بعد ذلك نوضح مميزات المسجد الجامع المعمارية بعد أن تبلورت لدى المهندس المسلم صورة واضحة المعالم لشكله العام وتخطيطه وأهم أجزائه.

أقسام المسجد الجامع الرئيسة :

لا شك أن المسجد الجامع قد تميز عن المساجد الخاصة أو غير الجامعة بعناصره المعمارية الرئيسة التي التزم بها المسلمون عند التخطيط والبناء وإن اختلفت هذه العناصر والأقسام التي يتكون منها في الاتساع والضخامة والمساحة أي في الشكل والمظهر العام من مسجد لآخر، وأهم هذه العناصر ما يأتي :

١ـ بيت الصلاة : وهو المكان المسقوف الذي يصطف فيه المصلون خلف الإمام لأداء الفريضة، ويعتبر هذا "البيت " من أهم أجزاء المسجد الجامع إن لم يكن أهمها جميعاً، ويرتفع سقفه عادة فوق العقود التي تحملها الأعمدة أو الدعائم التي خطت في صفوف متوازية ومنتظمة تحصر بينها ما يعرف " بالأساكيب " وهي الممرات الموازية لجدار القبلة الذي يتوسطه المحراب في غالب الأحيان، و"البلاطات" وهي الممرات العمودية على هذا الجدار. ويتكون من تقاطع الأساكيب والبلاطات، وبين كل أربعة أعمدة أو دعامات، مساحات مربعة الشكل تقريباً باسم "اسطوانات" كانت تعقد فيها حلقات الدرس.

٢ـ الصحن : وهو الجزء غير المسقوف الذي يلي بيت الصلاة وقد ترك دون سقف ليساعد على وصول الضوء إلى بيت الصلاة خاصة إذا كان هذا " البيت " كبيراً وعميقاً وتتعدد فيه الأساكيب كما هو الحال في بعض المساجد الجامعة الكبرى مثل مسجد قرطبة. وكان هذا الصحن في معظم الأحيان يتوسط المساحة التي يقام عليها المسجد الجامع.

٣ـ المجنبات : وهي الأروقة المسقوفة التي تحيط بالصحن من

جهاته الثلاث الأخرى غير بيت الصلاة، وكانت بدورها تتكون من رواق واحد أو أكثر.

وإذا كان بيت الصلاة هو المكان الأصلي المخصص لصفوف المصلين كما يدل عليه تسميته، فإن الصحن وأروقة المجنبات كانت بدورها تستخدم في كثير من الأحيان لنفس الغرض لا سيما في حالة كثرة عدد المصلين.

بالإضافة إلى تلك العناصر الثلاثة الأساسية في تخطيط وبناء المسجد الجامع وجدت عناصر أخرى كالمئذنة التي لم يتقيد المسلمون في تحديد مكانها أو إعدادها في المسجد الواحد، ويذكر أن معاوية بن أبي سفيان أمر واليه على مصر " مسلمة بن مخلد " ببناء صوامع للأذان في المسجد الجامع بالفسطاط، فأقام الوالي أربع مآذن في أركان المسجد الربعة فكان لصوت المؤذنين وهم ينادون للصلاة من فوقها جميعاً في وقت واحد دوي شديد.

كذلك وجد المنبر الذي كان يصنع من الخشب أو الرخام. وكان يقام بجانب المحراب ليقف عليه الإمام وهو يخطب حتى يراه ويسمعه المصلون بسهولة، كما وجدت أيضاً المقصورة، وهي حاجز خشبي عادة يحدد جزءاً من الصفوف الأولى في بيت الصلاة وكانت تخصص للخليفة وحاشيته وكبار رجال الدولة، وقد ظهرت في زمن متأخر بعد ما خشي الخلفاء على حياتهم من المؤامرات بعد أحداث الفتنة الكبرى، كما اتخذ الولاة في الأمصار مثل هذه المقاصير تشبهاً بالخلفاء كما فعل زياد ابن أبيه في مسجد الكوفة.

كذلك ظهر في المسجد الجامع " كرسي السورة " وهو من الأثاث المستحدث فيها، وكان يتخذ منه المقرىء مكاناً يجلس فيه لتلاوة القرآن الكريم، وأحياناً أخرى كان يقوم فيه " المبلغ " الذي يردد بعد الإمام حتى يسمعه المصلون جميعاً.

- المسجد الجامع - أكاديمية الإسلام الكبرى

حين نستعرض الألوان العلمية التي كانت تدرس في المسجد الإسلامي الجامع نرى أن المسجد قد احتضن كثيراً من أنواع العلوم، وأضاف إليها إضافات مثرية خصيبة : فالفقه الديني العبادي .. والفقه السياسي التشريعي .. وتفسير القرآن وفلسفته .. وتقعيد اللغة والنحو .. ودراسة الحديث جمعاً وشرحاً .. وتاريخ الأدب نظماً ونثراً .. وتأليف علم الكلام .. والتاريخ .. وتخطيط البلدان .. والرياضيات.. والطب .. والكيمياء .. والطبيعة .. كل هذه العلوم وجدت في المسجد أكاديمية رحبة الآفاق، فنمت في ظلالها وترعرعت، وبسطت ظلها الفينان على كل ما حولها ومن حولها.

وطبيعي أن هذه العلوم قد أخذت مكانها في المسجد على التدريج وليس طفرة واحدة، شأن كل جامعة أو أكاديمية، إنها تبدأ من محدودية معينة، ثم تأخذ في التطور حتى تبلغ غاياتها مما تريد .. وهكذا فعل المسجد الإسلامي، فلقد احتضن في أول نشأته علوماً معينة كالحديث والتفسير .. ثم تناول في آماده المتطورة ما جد في عصره من علوم، وما استحدث في زمانه من نظريات.

ولم تكن المساجد ذات صبغة واحدة تكرر نفسها .. أو بمعنى آخر لم تكن العلوم التي تدرس في مسجد كمسجد المدينة مثلاً، كالعلوم التي تدرس في مسجد كمسجد الكوفة .. فلقد اشتهر الأول برواية الحديث وجانب من التفسير، واشتهر الأخير بالنحو وعلوم اللغة .. ربما لأن مسجد المدينة كان موئلاً لكثير من الصحابة والتابعين الذين توفروا على دراسة القرآن ودراسة الحديث بما لديهم من وعي إيماني كامل بحقيقة الثروة التي ينطوي عليها القرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم ﷺ .. بينما كان مسجد الكوفة مثابة النحاة واللغويين، وخاصة حينما انتقل إلى الكوفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وشجع العلماء والباحثين على دراسة هذه العلوم والتعمق في قضاياها، ونستطيع أن نقول ذلك

بالنسبة إلى مساجد كثيرة، وتلك مأثرة أخرى من مآثر المسجد، فلو كان كل مسجد صورة مكررة لكل مسجد، لكبل ذلك المنهج العلمي الذي يدرسه، والمادة الفكرية التي يكب عليها، ولكنه عمل منذ بواكير نشأته على التخصص، سواء في شكل مساجد تدرس نوعية معينة من العلوم .. أو في شكل حلقات متخصصة في المسجد الواحد تدرس هي الأخرى نوعيات معينة من العلوم.

ويمتاز المسجد الجامع عن الأكاديميات الزمنية بكونه جامعة مفتوحة الأبواب، غير موصودة في وجه أي من الناس يقصدها ويتوجه إليها .. إنها دائماً ممدودة الذراعين لكل راغب وطارق، ودائماً ترتسم على شفتيها بسمة استقبال وإهلالة ترحيب، وليست كذلك المعاهد والجامعات والأكاديميات بكل ما ينقض ظهورها من المراسم والقواعد واللوائح والقوانين والطقوس... إن المسجد يتطلب حفنة من الماء تتوضأ بها جوارحك، فإذا أنت طالب منتسب ومنتظم .. تتلقى ليس في الحلقة وحدها، وإنما في الخطبة، والدرس، والموعظة .. فإذا آنست من نفسك القدرة على العطاء انتقلت من صفوف المتلقين إلى صف القائلين، دون عنت من امتحان عشوائي، أو إجازة إلا من الكرام الحميمين.

إن الروح العلمي الذي ميز التلقي والعطاء في المسجد الجامع عنه فيما عداه من معاهد أو مدارس أو جامعات، هو الذي منحه هذه الحرية العلمية المنطلقة، بكل ما في كلمة الحرية من رحاب وائتلاق .. لقد كانت هناك فئات متعددة من المذاهب، واتجاهات متقابلة من الآراء، حتى ليحسب النظر العابر - لتراحب مدى الخلاف بين هذه الطائفة أو تلك - إنهما قطبان متعاديان لا يمكن أن يلتقيا إلا ليفترقا .. ولكن النظرة الفاهمة المتأملة المتأنية في تاريخ التعليم في المسجد، أو في ما انبثق عنه من تعليم مدرسي تابع له، تقفنا على حقيقة الروح العلمي المتحرر الذي كان يسود هذا اللون من ألوان النقاش والجدل وتلقي الثقافات.

إن المسجد بهذه الحرية الفكرية الرائعة قد حقق لوناً من الروح

الجامعي الأكاديمي المتسامح ما زلنا ونحن في أوائل القرن الحادي والعشرين ننشدها أو ننشد بعضها في مدارس العلم وجامعاته فنجدها مرة هنا، ونخطئها مرات ومرات هناك.

هذه الحرية الفكرية الرائعة ذاعت ليس في أوساط العلماء والعامة فحسب ولكنها انتقلت إلى الخلفاء والأئمة والوزراء وقادة الفكر الديني، فحركتهم جميعاً في اتجاه التسامح الخصب، وجمعت بين جميعهم على كلمة سواء، هي أن يكون الخلاف والائتلاف في سبيل الإيمان الأنقى، ولا شيء غير ذلك على الإطلاق.

يقول الإمام محمد عبده مفتوناً بروعة هذه الحرية، ومتجولاً في أبهائها : "آخذ بيد القارىء الآن وأرجع إلى ما مضى من الزمان، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية، والأئمة من بني العباس، ووزرائهم ..والفقهاء، والمتكلمون، والمحدثون، والأئمة المجتهدون من حولهم، والأدباء، والمؤرخون، والأطباء، والفلكيون، والرياضيون، والجغرافيون، والطبيعيون، وسائر أهل النظر من كل قبيل، مطيفون بهم، وكل مقبل على عمله، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده، يصافح الفقيه المتكلم، والمحدث الطبيب، والمجتهد الرياضي والحكيم .. وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشتغل هو به، وهكذا أدخل بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت، يتحادثون، ويتباحثون، والإمام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران الخارجي، يأخذ عنه الحديث، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ الفقه من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل : " لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهي عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه، ولا باطناً أشبه بظاهر منه " .. بل أرفع بصري فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن علي صاحب مذهب الزيدية من الشيعة يتعلم منه

أصول العقائد والفقه، ولا يجد أحدهما من الآخر إلا اجتهاداً في بيان المصلحة ".

هذه هي حقيقة الحرية الفكرية كما ينشدها العالم المتحضر، نراها ولدت في رحاب المسجد الإسلامي الجامع، وبسقت فروعها وطالت حتى حطمت كل ما أمامها من سدود أو قيود، وانطلقت إلى غاياتها النبيلة فأثمرت هذا المد الفكري العظيم الذي انساحت أضواؤه في ربوع العالم من قديم، فشيدت حضارات، وساندت مدنيات، وخلقت موجة عارمة من الوعي العلمي الأكيد الذي عاشت عليه أجيال متلاحقة في عمر هذه البشرية،ومازالت تعيش، إلا أن عجلة التاريخ المسرع العجلان، وما أثخن جسم الأمة الإسلامية من جراحات وخطوب، قد باعد بين الجداول الدافقة وبين رافدها، فخيل إلينا أن الجدول يمتص حياته من شاطئيه، عندما توارى الراقد الواهب وراء جبال الضباب.

* * *

وهكذا يتضح لنا أن المسجد الجامع قد لعب دوراً خطيراً، فكان أكاديمية الإسلام الكبرى في كل مرحلة من مراحل الزمن، وفي كل طور من أطوار التاريخ، في رحابه درج العلم يافعاً وفتياً، وعلى حصيرة الساذج انبثقت ثورات علمية وفكرية ودينية غيرت ملامح الفكر، وشكلت اتجاهاته وسماته، ومن فوق منبره جلجلت صيحات نفذت بعمقها العميق إلى كل مجال من مجالات العلم في شتى الأصقاع والبقاع.

ولقد كان المسجد - وما يزال - نقطة ارتكاز الحركة العلمية ونقطة انطلاقها معاً .. فهو ليس مثابة يهرع إليها الراكعون الساجدون ثم لا شيء .. إنه معبد ومعهد، محراب وجامعة، مصحف وكتاب .. إنه يعكس طبيعة الإسلام الجامعة كدين ودولة، كمادة وروح، فإذا ارتكزت الحركة العلمية في وجودها عليه أو انطلقت منه، فإن ذلك ينبثق من طبيعة كون العلم في الإسلام حركة تحقق وجودها في الخارج وليس مجرد افتراضات

رياضية بحتة لا تترك بصماتها على وجه الواقع الحي، كما أن الظاهرة العبادية في الإسلام حركة تخرج من مجال القول إلى مجالات العمل، أو فلنقل إنها تخرج بالقول لتحيله دائماً إلى عمل .. من هنا يتلاءم مفهوم العلم والإيمان في الإسلام.

وإذا كانت هناك مدارس قد أنشئت قديماً إلى جوار هذه المساجد، وتلقفت الشعلة منها لتضيئها وتحميها فإن ذلك لا يطامن من دور المسجد العلمي، ولا ينقص من خطورة رسالته .. على النقيض .. فإن كل هذه المدارس والمعاهد والمنشآت التي قامت إلى جوار المسجد كانت جداول مترقرقة نعم .. لكنها كانت تستمد حياتها من الرافد الكبير " المسجد " .. والذي يقرأ تاريخ الجامع الأزهر مثلاً، يعرف أن الأيوبيين حين وفدوا على القاهرة، وحاولوا أن يطامنوا من دور هذه القلعة الدينية العلمية الشامخة، أنشأوا إلى جواره مدارس كثيرة، وأغدقوا عليها من حوله كل البذل وفاحش العطاء، فماذا كانت النتيجة؟ لقد حجبوا بأكفهم الصغيرة بعض ضوء الشمس عن مساحات هزيلة .. وبقي المدرسون، والمعلمون، والقراء، والمحفظون، الذين يتولون العمل في هذه المدارس الجانبية، ينزعون عن خلفية أزهرية بحتة، لأنهم من الأزهر تخرجوا، وعلى شيوخه حضروا، وفي جنباته تكونت ثقافتهم العلمية .. على أنه لم يمض طويل وقت حتى تسلم الأزهر الزمام من جديد، وانطلق بكل طاقة شيوخه وتلاميذه بوسع من رقعة الضوء الثقافي، ويؤكد في الأجيال قيم التراث الإسلامي النظيف.

كان المسجد إذن مثابة العبادة والتعليم، فكان بحق نقطة ارتكاز الحركة العلمية ونقطة انطلاقها معاً .. وكان إلى جوار ذلك مؤولاً لاحتواء الروح الأكاديمية في نظرتها الشمولية إلى كل ألوان المعارف دون وضع القيود على نوعية منها مهما كانت وضعية هذه النوعية جموحاً وتطرفاً .. إن نظرة المسجد للعلم لم تكن أبداً نظرة جاهلةً ضيقة تكبل مفاهيمه في إطار لوني معين وتبعد عن رحابه كل ما عداه، فقد أدرك أن العلم وحدة

لا تتجزأ، وأن من الخير بالفكرة الدينية أن تفتح صدرها لكل أنماط الثقافات، وأن تبحث حتى آراء ومذاهب الغالين، ربما ليتسنى لها أن تقف على كل الاتجاهات فتغربلها غربلةً واعية فتبقي منها على الأنفع وتنفي ما عداه.

إن النظرة الإسلامية للدراسة العلمية في المساجد الجامعة كانت رحيبة متسامحة فتحت صدرها للعلوم - كل العلوم - ولم تقف هيابة حيال لون من ألوانها المتعددة .. وكانت فلسفة النظرة الإسلامية في إفساحها كل المجالات لكل ألوان العلوم والمعارف على اختلاف أشكالها وأنماطها قائمة على اقتناع أولي : وهو أن ديناً كالإسلام يقوم على تلبية كل الاحتياجات العاطفية والحياتية والمثالية لا يجبن عن مقابلة علم من العلوم الكونية أو علوم ما وراء الطبيعة، لأن هذه العلوم إن لم تؤيد الحقيقة الدينية الخالدة، فإنها على الأقل لا تقف في وجهها ولا تناقضها من هنا أو من هناك !!

كان هذا هو الاقتناع الأولي الذي فتح المسجد في ظلاله أذرعته لكل ألوان العلوم الكونية والإنسانية لمقولاته العقائدية الصلبة، وأضفى على كثير منها دماثة الجدل وعقلانية الحوار.

وإذا كان المسجد أعطى من شيوخه رعيلاً قائداً بعد رعيل .. كانت الحياة تمثل بالنسبة لهم كلمة حق تقال، أو موقف رفض يتحقق، أو استشهادات بحجم تاريخ الاستشهاد على مر العصور .. وإذا كانت الأمة الإسلامية تحتفظ بذاكرتها جيداً، فهي بلا جدال تضع في تلافيف هذه الذاكرة أروع مواقف البذل والتضحية والفداء لطائفة من أولئك الأعلام الذين خرجهم حصير المسجد فتلقفهم خلود التاريخ!!

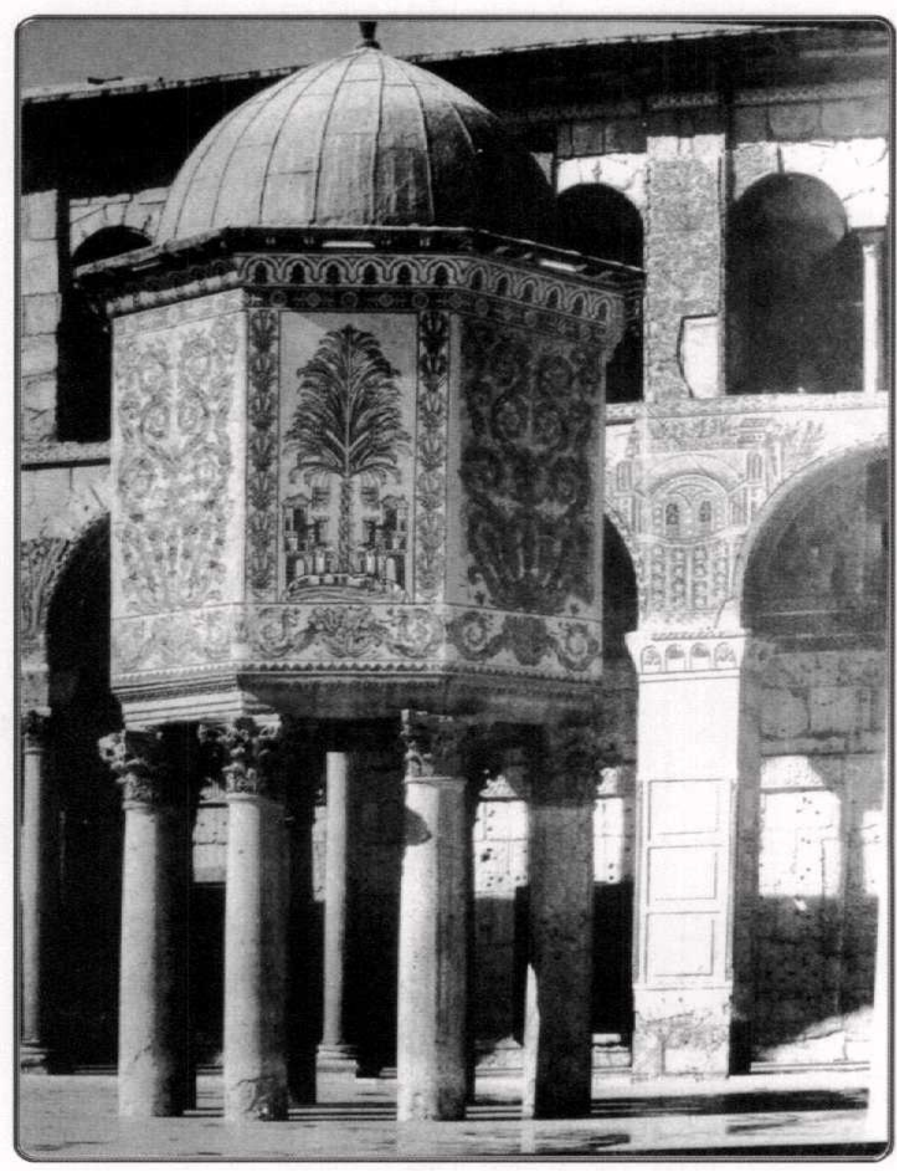
وإذن .. فالمسجد بواقعية نظرته إلى العلم .. كان متوائماً مع طبيعته وطبيعة الفكر الإسلامي الأصيل .. ودائماً كان المسجد باراً بهذه القضية فأولاها رعيه وولاءه، وعاشت الكلمة بين جدرانه صديقة للفعل، والحرف في تعاليمه زميلاً للسيف، والحضارة من خلاله بناء ناهضاً على

قوة المادة وقوة الروح.

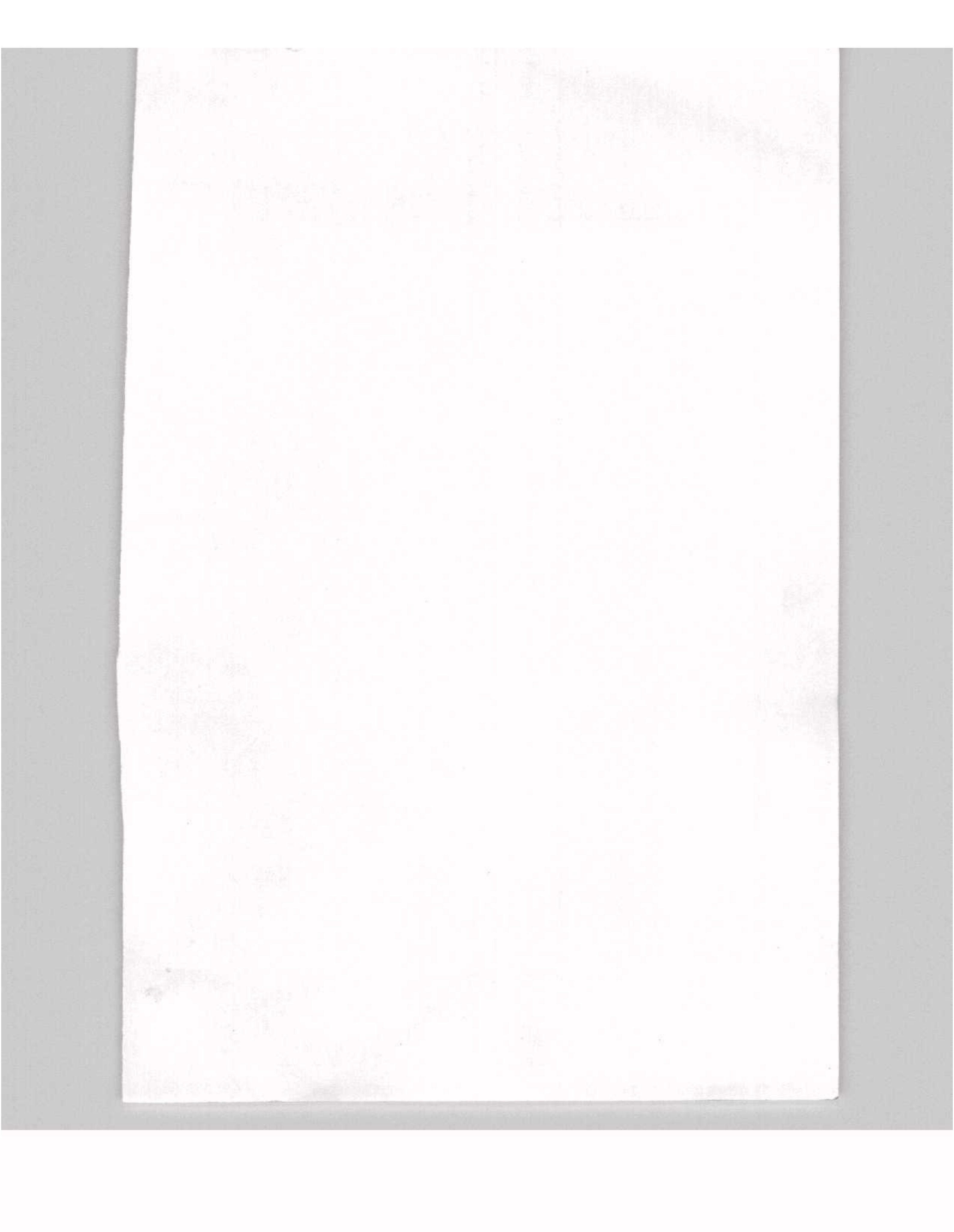
وإذا كان المسجد في عصوره المتأخرة قد تخلى عن بعض دوره في إعطاء الفكر قوة الفعل، وإعطاء الفعل بصيرة الفكر، فإنه مطالب بأن يستعيد مجده الأول، وأن يرفض أن تستحيل خطبه ومواعظه ودروسه وحلقاته وشيوخه إلى أبواق تصدي ولا شيء غير الصدى، وتتشنج ولا شيء سوى التشنج، إن البديل الوحيد لهذه الوضعية المأساوية أن يعيد المسجد فهم المعادلة من جديد، وأن يقرأ تواريخ المساجد الجامعة الأولى، وأن يطيل تأمل الدور الذي نهض به أشياخها على مر العصور .. إن ذلك وحده هو بداية انطلاق المسجد المعاصر إلى رسالته الحقيقية، والعودة به إلى فهم طبيعة الكلمة الفعل، التي تتحرك فتتحرك بها كل الأشياء المحيطة.. أما أن يظل قابضاً على قناعة الصمت، دائراً في إطار عشوائية الحركة، هارباً من قدر الالتحام بكل قضايا عصره المائر، مزاحماً فقط بين مواكب الخطباء الحماسيين.. فإنه بذلك يكون قد تخلى عن أروع أدواره الحقيقية، وأسقط من يده الراية بلا مبرر من منطق فاهم، وبلا ضرورة من حتمية حضارية معقولة الإيقاع !!

احمد الشنواني

الباب الأول



المسجد الأموي
عصارة الحضارة الإسلامية





المسجد الأموي عصارة الحضارة الإسلامية

لما انتهى العصر الأول، وأخذ الطابع الدنيوي يغلب على الدولة الإسلامية، وبدأت العلوم المدنية تأخذ مكانتها إلى جانب العلوم الجديدة، واستحالت المساجد الجامعة، في أنحاء العواصم الإسلامية الكبرى، إلى نوع من الجامعات الدينية والمدنية معاً، تدرس فيها إلى جانب علوم القرآن والسنة، علوم اللغة والآداب وما إليها، وهكذا رسخت صفة المسجد الجامعية بمضي الزمن، ولم يبق فقط مثوى للصلاة والعبادة، ولكنه غداً في نفس الوقت مدرسة أو جامعة يجتمع فيها مختلف العلماء ويقصدها الطلاب في غير أوقات الصلاة، للدرس والقراءة على أيدي أولئك الأساتذة، وقد كانوا على الأغلب أقطاب عصرهم في العمل والدين.

* * *

نظرة تاريخية .. وصفية

هذه المكانة الكبرى للمساجد الجامعة، جعلت المسلمين يباشرون إنشاءها فور حلولهم في منطقة ما، وهكذا أنشىء المسجد الجامع بدمشق عقب الفتح مباشرة.

ويعود تاريخ المسجد الجامع بدمشق " الجامع الأموي " إلى سنة ١٤هـ - ٦٣٥م، وذلك بعد تحرير دمشق من الحكم البيزنطي، حيث وقع اختيار المسلمين على البقعة التي يحتلها الجامع الأموي اليوم ليقيموا فيها صلواتهم، وهي أرض مقدسة كرست للعبادة منذ آلاف السنين، أقيم فيها

معبد للإله " حدد " الآرامي في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، ثم شيد في العهد الروماني معبد للإله " جوبيتر ". ويبدو من آثار هذا المعبد الباقية إلى الآن أنه كان يحتل مساحة واسعة وكان له سور خارجي تبلغ أطواله ٣٨٠×٣٠٠م.

أما المعبد الحقيقي فقد كان مشيداً داخل هذا السور، حيث أقيم الجامع الأموي فيما بعد، وقد تحول المعبد في أواخر القرن الرابع إلى كنيسة شيدت في عهد الإمبراطور "تيودوسيوس " وسميت على اسم القديس يوحنا المعمدان .. ويرجح بأنها كانت تحتل الجانب الغربي من المعبد وقد ظلت حتى أيام الوليد.

وهكذا أقيم المسجد الأول، مسجد الصحابة، في الجانب الشرقي من المعبد، وظل هذا الحال منذ الفتح وحتى خلافة الوليد بن عبدالملك، أي قرابة سبعين عاماً.

وقد كانت هناك حاجة ملحة لإقامة جامع ضخم يليق بعظمة الدولة ويلائم حالة التطور الذي بلغه المجتمع العربي الإسلامي، فلقد غدت دمشق في عهد الوليد عاصمة لأعظم دولة عربية في التاريخ منذ ازداد عدد المسلمين فيها. عند ذلك قرر الوليد تنفيذ مشروعه المعماري التاريخي، ودخل في مفاوضات مع المسيحيين لكي يتخلوا عن نصف المعبد، لا نصف الكنيسة، بالطرق المشروعة، وتم له ما أراد .. بعد ذلك هدم كل ما كان داخل جدران المعبد من منشآت رومانية وبيزنطية، ثم شيد الجامع وفق مخطط جديد مبتكر يتجاوب مع شعائر الدين الإسلامي ومتطلبات الحياة العامة، فجاء فريداً في هندسته .. وقدوة في فن بناء الجوامع الكبرى التي شيدت بعده في العالم الإسلامي، وقد قضى الوليد في بنائه قرابة عشرة أعوام بدءاً من ذي الحجة ٨٦هـ (٧٠٥م).

وإذا أردنا التحدث عن مخطط الجامع، فيمكن القول بأنه يأخذ شكلاً مستطيلاً أطواله ٩٧×١٥٦م. يحتل جانبه الشمالي صحن مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة ويحتل قسمه الجنوبي الحرم أو المصلى. وللجامع

ثلاثة أبواب رئيسية تؤدي إلى الصحن، تصله بجهات المدينة الثلاث الشرقية والغربية والشمالية، وهناك باب رابع في الحرم من الجانب الغربي منه، يصل الجامع بالجهة الجنوبية من المدينة.

أما أقسام الجامع فهي :

- **السور والأبواب** : وسور الجامع الأموي مبني من الحجارة الكلسية، مراميك كبيرة الحجم، مزودة بدعائم جدارية، وهو من العهد الروماني، إلا أن أكثر أقسامه جددت في العهود العربية.

وكان يحتل زوايا السور الأربع أبراج مربعة الشكل بقي منها إلى اليوم البرجان الجنوبيان، عليهما أقيمت المئذنتان الشرقية والغربية، أما أبواب الجامع .. فالباب الشرقي الذي حافظ على وضعه الأموي، وكان يدعى باب جيرون واسمه اليوم باب النوفرة ويتألف من باب في الوسط ذي قنطرة عالية وبابين صغيرين على جانبيه، ويقابله الباب الغربي ويدعى باب البريد، وهو مؤلف من ثلاث فتحات ويلي البابين الشرقي والغربي دهليز ضخم يتصل بالأروقة المحيطة بالصحن وبالمشاهد القائمة على جانبيه. أما الباب الشمالي فمؤلف من فتحة واحدة فقط وهو مجدد في العهود العربية اللاحقة وكان يدعى باب الفراديس وباب الناطفانيين. أما اليوم فيدعى باب العمارة. أما الباب المفتوح في الحرم فيدعى باب الزيادة، لأنه أحدث ما في السور عند باب الجامع .. وكان عند منتصف جداره الجنوبي باب ثلاثي الفتحات ماتزال آثاره واضحة على الخارج استخدمت فتحته الشرقية كباب خاص بالخلفاء، وسدت الفتحتان الأخريان.

- **أما الصحن والأروقة** : فالصحن مستطيل، مبلط بالحجر الذي جدد في عهود متعددة وارتفعت سويته، ثم أعيد إلى مستواه الأصلي، في وسط الصحن يوجد عمودان من الحجر يحملان رأسين مزخرفين من النحاس قديمين كانا يستعملان للإسراج وإنارة الصحن.

يحيط بالصحن رواق مسقوف محمول على عضائد وأعمدة .. تحمل قناطر ذات أقواس نصف دائرية مدببة، فوق كل قنطرة قنطرتان صغيرتان، محمولتان على عضادتين بينهما عمود .. وهكذا يتألف الرواق من طابقين، في العلوي من القناطر ضعف ما في السفلي.

ولقد تغير مستوى أرض الأروقة بعد زلزال ١٧٥٩ .. لذلك كان التعرف على وضعها الأصلي عبر دراسات قام بها علماء الآثار، وظهر أنها كانت مبلطة بالفسيفساء الحجرية.

- **أما الحرم** فيتألف من ثلاثة أروقة موازية للقبلة، محمولة على صفين من الأعمدة الحجرية، مؤلفة من طابقين .. سفلي مؤلف من قناطر كبيرة نصف دائرية، والثاني يتألف من عدد مضاعف من القناطر، وقد تجددت أعمدة الحرم بعد حريق ١٨٩٣ الذي حدث في الحرم دون تغيير في أوضاع الأروقة أو شكل الأعمدة.

ويقطع الأروقة الثلاثة رواق أوسع منها يسمى المجاز يتعامد مع جدار القبلة، يتصدره المنبر والمحراب، ويتوسط المجاز قبة عالية ترتفع قرابة ٣٦ متراً محمولة على أربع دعائم ضخمة، فوقها قبة مثمنة، مزودة بالنوافذ، وتعرف بقبة النسر، ويغطي الحرم سقوف سنامية الشكل صنعت من الخشب وصفحت من الخارج بالرصاص، وهي ثلاثة سقوف توازي القبلة ممتدة من الشرق إلى الغرب، يقطعها في وسطها سقف المجاز المرتفع وهي مزينة بالزخارف والدهانات والذهب.

وعند ذكر الحرم لابد من ذكر ضريح النبي يحيى" القديس يوحنا المعمدان " .. والذي أثبتت الروايات التاريخية المؤكدة من قبل المؤرخ ابن عساكر خبر العثور على قبره في هذا المكان، أثناء تشييد الجامع .. ويقال بأن الوليد أمر بالحفاظ عليه، وأن يجعل فوقه عموداً من الخشب مزيناً بالنقوش يختلف عن العمد الأخرى ليدل عليه، إلا أنه ذهب مع الحريق فأعيد بناؤه بالرخام وفوق العمارة الكلاسيكية كما هو الآن.

- **أما المآذن** : فقد كان للمعبد أربعة أبراج لم يبق منها حين تشييد الجامع إلا البرجان الجنوبيان فاتخذا مئذنتين، ثم شيدت مئذنة ثالثة إلى جانب الباب الشمالي على هيئة برج مربع وعرفت باسم " مئذنة العروس ". وشيدت المئذنة الشرقية فوق برج المعبد ودعيت " مئذنة عيسى " أما المئذنة الغربية فهي من أجمل المآذن .. وقد شيدت أيضاً فوق برج المعبد ..
- **وتتألف زخارف الجامع** من عنصرين رئيسيين هما الفسيفساء والرخام وتتحدث الروايات التاريخية عن غرفة عظيمة من الذهب كانت تحيط بجدران الحرم تحت الفسيفساء الأموية، وتتميز الفسيفساء الأموية بأن مواضيعها خالية من الصور .. فهي قاصرة على مشاهد الطبيعة والعمائر والزخارف النباتية والهندسية، وكان يتخلل الفسيفساء الأموية كتابات وآيات قرآنية، لا سيما في الحرم.

* * *

المعلمون الأوائل

كان جميع المسؤولين والمعلمين الأوائل من الصحابة والتابعين الذين شهدوا تعليم المعلم الأول الرسول ﷺ، أو ذاك الذي قام به أصحابه بحسب توجيهاته، فحين فتحت الشام، كتب يزيد بن أبي سفيان الذي تولى جند دمشق إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه طالباً إرسال معلمين يعلمون أهل الشام القرآن، ويفقهونهم، فأرسل الخليفة ثلاثة من الصحابة الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول ﷺ وهم : معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأوصاهم أن يبدأوا بحمص، فإن رضوا عليها فليخرج واحداً إلى دمشق وآخر إلى فلسطين، فأقام عبادة بحمص، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين، ومات معاذ عام طاعون عمواس (١٨هـ - ٦٣٩م) فسار عبادة بعدها إلى فلسطين،

ومات فيها عام ٣٤ هـ - ٦٥٥م ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات عام ٣٢هـ - ٦٥٣م.

وحين توفي يزيد بن أبي سفيان دأب خلفاؤه على تعيين مشيخة للجند (أو للمسجد) تضم معلمين للإقراء والقصص، وكان المعلم الذي يكلف للإقراء يسمى "قارىء الجند" والذي ينتدب للقصص يسمى "قاص الجند " فكان ممن كلف القصص : عائذ الله بن عبدالله أبو إدريس الخولاني، وكان من كلف الإقراء : عطية بن قيس الكلابي وعبدالله بن عامر اليحصبي ويحيى بن الحارث الذماري وأبو عبدالملك.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المعلمين تصدوا لموضوعات أخرى غير تلك التي ندبوا من أجلها، فقد ظهر في القرن الثاني منصب تعليمي آخر في جامع دمشق، وهو منصب فقيه الجند، كلف صاحبه الإجابة عن استفسارات المؤمنين، بشأن ما يستخلص من القرآن والسنة من الأحكام لتطبيقها في الحياة العملية.

وقد تقلده عدد من العلماء نعرف منهم : العلاء بن الحارث الذماري، وقيس بن موسى الأعمى، وعبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، ويزيد بن السبط، ويزيد بن يوسف. . وكانت هناك توجيهات عامة تحث المعلمين على التعليم في المساجد فقد كتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى عماله : " أما بعد .. فأمروا أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت ".

وكان أولو الأمر يسهمون في هذا التعليم أحياناً، كما يستدل من بعض الشواهد فقد روي عن يونس بن ميسرة بن حلبس (أن معاوية توضأ للناس وضوء رسول الله ثلاثاً) وروي عن وارد أبي الدر، كاتب المغيرة ابن شعبة ومولاه " أن معاوية كتب إلى المغيرة، أن اكتب إلي بشيء سمعته من رسول الله، فكتب إليه المغيرة أن الرسول ﷺ كان يقول بعد انصرافه من الصلاة (دعاء) وأنه حين وفد على معاوية بعد ذلك سمعه على المنبر يأمر الناس بذلك القول ويعلمهموه".

إلا أن العناية بالتعليم الديني على الصعيد الرسمي لم تكن لتمنع حملة العلم من الجلوس في المسجد، وتقديم التعليم بصورة دائمة أو عابرة، بل أن من كان عنده شيء من العلم كان يعرف تماماً أن واجبه يقتضيه تعليمه إلى سائر المؤمنين. وكما قال ابن شهاب الزهري : " إن هذا العلم أدب الله الذي أدب به نبيه ﷺ، وأدب النبي به أمته، أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله "، لذلك ليس من المستغرب أن نسمع أحد شيوخ القرن الأول يقول : " عهدت المسجد الجامع بدمشق، وإن عند كل عمود شيخاً .. وعليه الناس يكتبون العلم ".

وكما عُرف للمعلمين تجمعهم في ممارسة التعليم في المسجد بناءً على مبادرتهم الشخصية تركت لهم أيضاً الحرية في تنظيم عملهم، من حيث تحديد زمانه ومكانه، ومقاربته للمتعلمين بصورة تتناسب مع موضوع تعليم كل منهم، وتوفق بين عمله وعمل زملائه من جهة النشاط العام للمسجد من جهة أخرى، وقد أفاد المعلمون من هذه الحرية التي منحت لهم، فنظموا تعلمهم في تلك الفترة بحسب نماذج رئيسية أربعة هي :

التعليم الزمري، والتعليم الفردي، والتعليم الجماعي، والحلقات والمجالس - وقد اتخذ بعض الحلقات أخيراً اسم الزوايا.

ومن الممكن أن يكون بعضهم قد اتبع نموذجاً واحداً، إلا أن قسماً كبيراً منهم كان يناوب بين أكثر من نموذج، ولا سيما أن معظم المعلمين كانوا يعلمون أكثر من موضوع في تلك الفترة المبكرة من تاريخ التربية العربية - الإسلامية وأن بعض النماذج يناسب بعض الموضوعات أكثر من غيرها.

وقد أريد من هذا التنظيم تلبية الحاجة الماسة في البداية إلى تعليم القرآن الكريم لأكبر عدد ممكن من المسلمين في أقصر مدة ممكنة دون وجود نص مكتوب يعتمد عليه، ذلك أن القرآن لم يكن قد جمع ووزع على الأمصار، ولما كان ذلك يتطلب تكوين أعداد كبيرة من المقرئين في

الوقت ذاته، لجأ أبو الدرداء على ما يبدو إلى إجراء اختبار أولي، مكّنه من اصطفاء ذوي القدرات المتميزة، واتخاذهم مساعدين له أو عرفاء على بقية المتعلمين، وقسم المتعلمين بدورهم إلى فئات صغيرة خص كلا منها بأحد المساعدين، كما جاء على لسان أحد تلاميذه، قال أبو عبيد الله مسلم بن مشكم، قال لي أبو الدرداء : أعدد من يقرأ عندنا، يعني في مجلسنا هذا، فعددت ألف وست مائة ونيفاً، فكانوا يقرأون ويتسابقون : عشرة عشرة، لكل عشرة منهم مقرىء. وكان أبو الدرداء قائماً يستفتونه في حروف القرآن (يعني المقرئين) فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول إلى أبي الدرداء".

وقال يزيد بن أبي مالك : إن أبا الدرداء هو الذي سن هذه الحلق يقرأ فيها.

ولهذا التنظيم ميزتان : تتمثل الأولى في قدرته على تحقيق الإتقان المطلوب في بعض الموضوعات ولا سيما القرآن، والثانية في اشتماله على مقومات نموه، لأنه اتخذ من الربط الوثيق بين عمليات التعلم والاختبار والاصطفاء مبدأ عاماً، يطبق في نطاق جماعة المتعلمين كلها، وعلى صعيد الزمر فيفرز المزيد من المتعلمين،وهؤلاء يلبون بدورهم حاجات أعداد أكبر من المتعلمين، وهكذا ..

ومن الممكن تسمية هذا النظام أو هذا التنظيم بتنظيم " المعلمين المساعدين " أو "العرفاء " كما ورد على لسان أحد الشيوخ القدامى، ففي رواية سويد بن عبدالعزيز " كان أبو الدرداء إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجمعهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريف. ويقف في المحراب يرمقهم ببصره. فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، وإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك وكان ابن عامر عريفاً على عشرة ".

وُجد هذا التنظيم إلى جانب أشكال التنظيم الأخرى من البداية، بالرغم من أنه يتطلب قسطاً كبيراً من وقت المعلم، إلا أن المعلمين

الأوائل الذين نذروا أنفسهم لنشر الدين والذود عنه، كانوا إما في جهاد أو تعليم أو عبادة. وهكذا تسنى لهم الوقت الكافي لأن يعنوا بالطلاب الأكفياء، عناية فردية مكنت هؤلاء من الانتقال بدورهم إلى مرتبة المعلمين.

ومن أمثلة هذا التعليم ما اتبعه فضالة بن عبيد الأنصاري الذي أقرأ في خلافة معاوية في تعليم طلابه، فقد كان يقرئهم كلاً على حدة، ويقول لكل منهم: " خذ المصحف فامسك به، ولا تزد عليّ ألفاً ولا واواً ". وكان الطالب يمسك عليه القرآن حتى يفرغ منه.

كما استخدم التعليم الجماعي بصورة رئيسية في القصص أو الوعظ. إلا أنه استخدم كذلك في تدريس الحديث والفقه، وفي القرآن أحياناً، والأساس فيه أن يتجه العالم إلى الجماعة كلها، ومن هنا جاء هذا الاسم الذي أطلق عليه.

لذلك كان يتخير له الوقت الذي يجتمع فيه أكبر عدد من المتعلمين ولا سيما بعد صلاة العصر، حين ينتهي الناس من أعمالهم، ويؤمون المسجد للصلاة، ويوم الجمعة حين يضم المسجد جموعاً كثيرة من داخل المدينة وخارجها، ويمكننا تشبيهه بالمحاضرة العامة في أيامنا هذه.

* * *

المجالس والحلقات

والواقع أن الشواهد الأولى لا توحي بوجود نظام للجلوس والتحلق، وربما استند بعض المعلمين إلى إحدى الدعامات الخشبية التي تقوم عليها الظلات وتحلق الطلبة حوله في المكان الظليل، فهذا ترتيب يرعى المعلم والمتعلم على السواء، ولكن توسيع المسجد، وتوزيع القسم الأكبر من مساحته إلى أروقة، تحف بها عشرات من العمد. ساعدا على تنظيم الحلقات والمجالس في المكان، كما أن زيادة الطلب على التعلم، وتنوع محتواه دفعا إلى تنظيمها في الزمان. وهكذا اتخذ المعلمون

المعروفون لمجلسهم أو حلقتهم موضعاً ثابتاً وزماناً محدداً، بحيث يتمكن الطلبة من الحضور إلى مجلس معلمهم في الموعد المحدد، والانتقال إلى آخر إذا كانوا يرغبون في سماع أكثر من معلم. ومن شواهد ذلك ما ذكره سعيد بن عبدالعزيز عن تنظيم مجالس الفقه والحديث. في هذا الجامع أثناء دراسته فقد قال : " كنا نجلس بالغدوات مع يزيد وبعد الظهر مع إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر، وربيعة بن يزيد، وبعد العصر مع مكحول ".

وكان المجلس أو " الحلقة "، في تلك الفترة يسميان غالباً باسم الشيخ الذي يتولى التدريس فيه، ولا سيما أن الشيوخ الأوائل كانوا يعلمون أكثر من مادة دراسية، إلا أن اختصاص المعلمين تدريجياً بموضوع محدد، أضاف إلى المجلس أو "الحلقة" الموضوع الذي يتناوله فقيل : مجلس حديث، ومجلس فقه، ومجلس وعظ أو تذكير، ومجلس إقراء، ومجلس نحو ..

ومن الحلقات والمجالس التي درست فيها موضوعات مختلفة في الفترة الأولى بالجامع الأموي :

ـ مجلس قبيصة بن ذؤيب، ذكره محمد بن مسلم بن شهاب الزهري في روايته عن قدومه إلى دمشق في أيام الخليفة عبدالله بن مروان، وقال عنه إنه كان أعظم المجالس التي رآها في المسجد، وأكثرها أهلاً وقد درس فيه الحديث والفقه.

ـ حلقة سعيد بن عبدالعزيز التنوخي، التي استمرت أكثر من نصف قرن، وكان يدرس فيها الحديث والفقه ومن المجالس والحلقات التي اقتصرت على موضوع بعينه نذكر مجلس القارىء عبدالله بن عامر اليحصبي، الذي تنسب إليه القراءة المشهورة بقراءة ابن عامر. وقد طلب الخليفة الوليد بن عبدالملك منه الجلوس للإقراء بين الحناية والقنطرة من جامع دمشق. وحلقة كنيز بن عبدالله للفقه على مذهب الشافعي.

وحلقة القاسم بن عثمان الجوعي، وحلقة علي بن طاهر بن جعفر،

أبو الحسن القيسي السلمي النحوي، في النحو وقد وقف في حلقته خزانة تضم كتبه.

ويلاحظ في هذه الحلقات أن الطلاب كانوا يتخذون أماكنهم بحسب زمن وصولهم إلى الحلقة عملاً بالسنة التي تقضي بأن يجلس الشخص حيث تنتهي به الحلقة، كما يلاحظ أن بعض المعلمين كانوا يوصون بحلقتهم إلى بعض طلابهم من بعدهم، فقد جاء يزيد بن عبدالملك الأموي أيام طلبه العلم، إلى حلقة الفقيه مكحول في جامع دمشق. فلما رآه أصحاب مكحول هموا بالتوسعة له فقال لهم مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ليتعلم التواضع. وقد أوصى مكحول بحلقته بعد وفاته إلى تلميذه ثابت بن ثوبان، إلا أن طالباً آخر من طلابه جلس فيها بعده.

كما كان التلميذ يطلب أحياناً من أستاذه أن يوصي لـه بحلقته، فحين رأى يزيد بن عبدالصمد أن معلمه عبيد الله بن عبدالكريم أبا زرعة الرازي يوشك أن يعود إلى بلده قال له: يا أبا زرعة اجعلني خليفتك في هذه الحلقة، فأجابه إلى طلبه.

وهكذا ترى أن انتظام الحلقات كان يعني استمرارها في المكان نفسه من الجامع، وتناقلها من شيخ إلى شيخ، مع محافظتها غالباً على الموضوع نفسه والاتجاه نفسه.

وفي الحلقات التي اجتمعت فيها هذه الصفات في نهاية القرن الخامس الهجري "الزاوية الغربية" وهي حلقة تدرس الفقه على المذهب الشافعي، بدأها الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي، الذي أقام في دمشق يدرس في ركن يقع في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع من عام ٤٨٠هـ حتى وفاته عام ٤٩٠هـ دون أن يتقاضى أجراً أو يقبل صلة، واستمرت الحلقة بعده حاملة اسمه حيناً واسم " الزاوية الغزالية" نسبة إلى أبي حامد الغزالي الذي جلس فيها فترة، وفيها وقف السلطان "الملك الناصر" قرية حزم باللوي من حوران على الجماعة الذين يشتغلون

بعلم الشريعة، أو بعلم يحتاج إلى الفقيه، وإلى الحضور لسماع الدرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق، المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي. وجعل الوقف للشيخ قطب الدين الميسابوري .. كما يقول أبو شامة في الروضتين. وبحصول هذه الحلقة على الوقف، استكملت جميع الخصائص التي تميزت بها المدارس التي نشأت خارج الجامع، بدءاً من عام ٤٩١ هـ/ ١٠٦٨م.

وهكذا أصبح من الطبيعي أن يطلق عليها اسم المدرسة إلى جانب الاسمين السابقين وهما : الحلقة والزاوية.

وهكذا .. كان المسجد الجامع بدمشق أو الجامع الأموي هو المؤسسة التربوية الأم، التي حملت مسؤولية التربية العربية الإسلامية بصورة رئيسية في المدينة وما حولها في القرون الأربعة الأولى للهجرة.

* * *

المسجد الأموي إحدى عجائب الدنيا
وأول مسجد استخدم فيه المآذن للأذان

لقد ربط الإسلام بني العرب، ولمّ شعثهم ووحد صفوفهم، وخلق منهم قوة هائلة، فمضوا يهزون العالم بانتصاراتهم، ويخضعون أمماً عريقة في الحضارة. وما لبثوا أن تغلبوا على الإمبراطورية الساسانية، واستولوا على أكثر ولايات الإمبراطورية البيزنطية في سنوات معدودات.

وهكذا ارتفعت أعلام الإسلام في فارس والعراق والشام ومصر تمهيداً لما أحرزه بعد ذلك من انتصارات تجاوزت كل تقدير في الحسبان .. إذ حرر بلاد المغرب والأندلس،وطرق أبواب الهند والصين والحبشة والسودان والأرض الكبيرة (فرنسا) والقسطنطينية، واستطاع أن يقيم إمبراطورية مترامية الأطراف تمتد من بلاد الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وربط بين شعوبها برابطة روحية قوية هي رابطة الدين. ثم نشأت رابطة أخرى قوية من التقارب الاجتماعي بين العرب وأهل البلاد

المفتوحة عن طريق المصاهرة، وأصبح اندماج العرب والأعاجم من الوجهة الفسيولوجية والاجتماعية جيلاً بعد جيل، وطبقة بعد طبقة، حقيقة واقعة .. وهكذا دان للعرب وثنيون ومسيحيون يتميز العدد الأعظم منهم بسمو في الثقافة وتفوق في الحضارة.

وما كان العرب يخلدون بعد الفتوح إلى حياة السلم حتى أخذوا في استقرارهم يحوطون أنفسهم بكل مظاهر الأبهه والاستمتاع بالحياة، فأقبلوا على الترف، وحرصوا على التزين. ولم يكن للعرب قط تعبير جمالي سوى زخرف القول، فمجدوا هذه الثقافات الطارئة دون أن يستغرقهم التفوق الثقافي للشعوب التي أخضعوها. وما لبثوا إلا قليلا حتى اصطبغت هذه الثقافات بالصبغة العربية، وحتى لا نكاد نستطيع أن نميز ما يعزى إلى السريان والفرس والقبط والأسبان.

أما الفنون التصويرية فلم يكن لهم فيها حظ كبير، فاحتضنوا حضارات الشعوب المغلوبة، وشملوا رجال الفن من أهل الذمة برعايتهم، واستخدموهم في تشييد عمائرهم وزخرفتها بعد أن كيفوها وفقاً لما يقتضيه دينهم وتقاليدهم .. فجاء الفن الإسلامي مزيجاً من فنون مختلفة من اليسير تمييز أصولها. وكان قوامه الفنون الساسانية والبيزنطية والهندية والصينية وغيرها مما كان مزدهراً في البلاد التي امتدت إليها أشعة الإسلام.

ثم أخذت هذه التقاليد الفنية المختلفة تنصهر بمرور الزمن في بوتقة الإسلام، وتولد منها أسلوب جديد له طابعه الخاص وشخصيته الواضحة، واتسم هذا الأسلوب بصفات تكاد تكون واحدة في كل أنحاء العالم الإسلامي نتيجة للوحدة الروحية في البلاد التي خضعت له. وساعد على تثبيت هذه الوحدة الروحية بعض التقارب النفسي بين الشعوب الشرقية، وسهولة الاتصالات الفكرية والاقتصادية في بلاد العالم الإسلامي جميعها، حتى في أشد عصوره انقساماً.

وكان لاختيار بني أمية الشام مركزاً للخلافة الأموية أثره البالغ في

تأثرهم ببعض الطرز الفنية التي كانت سائدة في الشام حيث ازدهرت مدارس الفن الهلينستي والبيزنطي المتأثر ببعض أساليب الفن الساساني بحكم الجوار. وشاهد المسلمون العمائر المسيحية البيزنطية بالشام، وكان من الطبيعي أن يتأثروا بها حين شرعوا في تشييد أبنيتهم الدينية والمدنية تضارع في عظمتها أبنية الروم وكنائسهم، فاعتمدوا بادىء ذي بدء على الصناع السوريين والقبط، وتتلمذوا على أيديهم، وأقاموا أبنية نطالع فيها التقاليد الفنية البيزنطية والساسانية.

والواقع أن بلاد الشام، على الرغم مما أصيبت به من جراء الغزو الفارسي والفتح الإسلامي، كانت أكثر بلاد حوض البحر المتوسط تحضراً، ولم يكن يضارعها ويفوقها في ميدان الفكر والفن سوى بيزنطة. وهكذا تلقى الأمويون تراث الهلينية، واستخدموا الفنانين المحليين في أبنيتهم، لذلك جاء الفن الأموي فناً هلينستي الطابع ويذكر البلاذري في كتابه "فتوح البلدان " أن الوليد بن عبدالملك بن مروان كتب إلى عامله على المدينة عمر بن عبدالعزيز يأمره بهدم مسجد المدينة وبنائه من جديد، "وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه".

❋ ❋ ❋

وجامع دمشق يقوم على موضع كنيسة يوحنا المعمدان (St. Juan Babtist) التي أقامها الإمبراطور تيودوسيوس داخل معبد الإله جوبيتر الدمشقي. وهو معبد وثني قديم، احتفظت الكنيسة بجدرانه الخارجية وأبراجه الصماء الأربعة. فلما دخل أبو عبيدة بن الجراح مدينة دمشق من الجهة الغربية انتهى إلى نصف الكنيسة وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى، ودخل خالد بن الوليد عنوة من الجانب الشرقي، وانتهى إلى النصف الثاني، وهو الشرقي - فاحتازه المسلمون، وصيروه مسجداً، وبقي النصف المصالح عليه - وهو الغربي - كنيسة بأيدي المسيحيين.

وهكذا شاطر المسلمون نصارى دمشق كنيستهم الكبرى، وأقاموا في نصف الكنيسة الشرقي صلاتهم فلما تولى الوليد بن عبدالملك الخلافة (٨٨ـ٩٦ للهجرة، ٧٠٧ـ٧١٤م) رأى أن يقيم مسجداً جامعاً للمسلمين، لا يقل عظمة عن الكنائس البيزنطية الكبرى .. فقد "رأى الشام بلد النصارى، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد بولغ في زخارفها، وانتشر ذكرها - كالقيامة، وبيعة لد، والرها - فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن، وجعله إحدى عجائب الدنيا ".

بادر الوليد بمفاوضة أصحاب الكنيسة في التخلي عن شطرهم، وعرض عليهم مالاً كثيراً مقابل تنازلهم عن هذا الشطر، فأبوا، فانتزعه منهم قهراً " وطلع لهدمه بنفسه. وكانوا يزعمون أن الذي يهدم كنيستهم يجن، فبادر الوليد وقال : أنا أول من يجن في الله. وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون وأكملوا هدمه ".

واستقدم الوليد لبناء الجامع الجديد عدداً كبيراً من الصناع والبنائين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وقيل إنه كتب إلى ملك الروم يطلب منه أن يوجه إليه مائتي صانع من بلاده، وأن ملك الروم أجابه إلى ما طلب. وقيل إنه كتب إلى ملك الروم، حين أزمع تجديد جامع المدينة، قائلاً : "إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم، فأعنا فيه بعمال وفسيفساء". فبعث إليه الإمبراطور بأحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملاً.

وذكر ابن جبير أنه وجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بإشخاص اثني عشر ألفاً من الصناع من بلاده، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك أن توقف عنه، فامتثل أمره مذعناً بعد مراسلة جرت بينهما في ذلك. وذكر المقدسي أن الوليد استحضر لبناء جامع دمشق حذاق الفنانين من فارس والهند وأفريقيا وبيزنطة. ويبدو أن في هذا القول بعض المبالغة، إذ أن الهند لم تكن قد دخلت بعد في ملك الدولة الأموية.

أما مساهمة الصناع البيزنطيين فأمر لا شك فيه، إذ أن جدران الجامع كله "أنزلت بفصوص من الذهب، وخلطت بها أنواع من الأصبغة

الغريبة قد مثلت أشجاراً، وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصف كل واصف، فجاء يغشى العيون وميضاً وبصيصاً ".

ويبدو من دقة هذه الزخارف التي تؤلفها الفسيفساء أن هذه الفسيفساء أنزلت بأيدي عمال بيزنطيين لم يشترك معهم صناع محليون من دمشق .. إذ أن أسلوب الزخرفة بيزنطي بحت، لأن الزخارف تمثل مناظر طبيعية وأشجاراً وقصوراً طابعها كلاسيكي بحت يمكن أن نطلق عليه الطابع البومبيني، في حين تمثل زخارف الفسيفساء في قبة الصخرة مناظر نباتية ذات طابع تجريدي يكشف عن اشتراك الفنانين السوريين في عملها وصنعها.

عني الوليد بن عبدالملك ببناء جامع دمشق، حاضرة الدولة الأموية، عناية كبيرة، وبلغ في بنائه الغاية في التأنق والإتقان، وجعل منه بحق تحفة من تحف فن العمارة الإسلامية في عصر مبكر لم يكن للمسلمين آثار تذكر. واستغرق بناء الجامع عشر سنوات، وأنفق فيه نفقات كثيرة (قيل إنها بلغت مائة صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار). فلما أتمه قال لأهل دمشق : " يا أهل دمشق إنكم تفخرون على الناس بأربع : بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهي هذا المعبد ".

ويزعم بعض مؤرخي الفن أن الوليد لم يهدم الكنيسة، وإنما فتح الجدار الفاصل بين الجزء الشرقي الذي كان يشغله المسجد القديم، والجزء الغربي الذي كانت تقوم فيه الكنيسة، وأقام مكانه رواقاً يؤدي إلى المحراب، وشيد فوق منتصف هذا البلاط قبة، ويستدل هؤلاء المؤرخون على ذلك بأن الجامع يحتفظ في تخطيطه بنظام البازيليكيات، وأن أعمدته وتيجانها كلها كلاسيكية قديمة، وأن الأبراج الأربعة التي كانت تقوم في أركان الكنيسة ظلت تستخدم مآذن للمسجد.

إلا أن الأستاذ " كريسويل " يصر على أن الكنيسة التي أقامها

تيودوسيوس كانت تقوم في وسط المعبد الوثني القديم المستطيل، وأنها لم تكن تشغل جانباً منه بحيث تستند على أحد جدرانه كما هو الحال في جامع الوليد. ويؤكد كريسويل أن الكنيسة هدمت كلها، وأقيم الجامع على موضعها. ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخون من أن الوليد هدم الكنيسة كلها، فالمسعودي قرأ في جدار المسجد بالذهب على اللازورد : " أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبدالله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين ".

وادعاء هؤلاء المؤرخين بقاء الكنيسة يماثل ادعاءهم بقاء جدار كنيسة سانت بنجنت بقرطبة، مع أن الأمير عبدالرحمن الداخل هدمها، وأقام على موضعها مسجده الجامع، وأن الأمير عبدالرحمن الأوسط أضاف إلى بلاطات هذا الجامع الأول بلاطين جانبيين الغربي منهما هو الذي نراه اليوم.

ويتألف المسجد الجامع بدمشق من صحن مستطيل مكشوف، وبيت للصلاة مسقوف طوله ١٣٦ متراً وعرضه ٣٧ متراً، ويتكون هذا الجزء المسقوف من ثلاثة بلاطات تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء جدار القبلة، يفصل فيما بينها ثلاثة صفوف من عقود نصف دائرية متجاوزة بعض الشيء، تقوم على أعمدة رخامية، ويعلو كل عقد منها طاقتان نافذتان معقودتان. ويتوسط البلاطات الثلاثة بلاط عمودي على جدار القبلة أكثر ارتفاعاً من بقية البلاطات، تعلو منتصفه قبة حجرية ضخمة. وينتهي هذا البلاط الأوسط بالمحراب، وهو يشبه المجاز في الكنائس.

وأسقف هذه البلاطات منشورية، وتقوم في منتصف البلاط الأوسط فيه حجرية أضيفت في عصر متأخر. ويحيط بالصحن مجنبات ثلاث تطل عليه بعقود متجاوزة تشبه حدوة الفرس، وكان الجامع الذي بناه الوليد يشتمل على أربع صوامع للأذان لم يبق منها سوى واحدة في الزاوية الجنوبية الغربية. أما المئذنتان اللتان نراهما اليوم بالمسجد فمتأخرتان.

وجامع دمشق أول جامع استخدمت فيه المآذن للأذان، وتبعه في

ذلك جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، إذ أدخلت فيه - في ولاية مسلمة بن مخلد عام ٥٣هـ - أربع صوامع، ومن مآذن جامع دمشق انتشر نظام المآذن المربعة بصفة خاصة في بلاد المغرب والأندلس. ولا يزال هذا النوع من المآذن منتشراً في المغرب، ويطلق عليه الاسم القديم وهو الصومعة.

ولقد أصيب جامع دمشق بأضرار جسيمة، فقد أحرق خمس مرات، وأعيد بناؤه وجدد، وفقد كثيراً من عناصره الأولى، ولكنه لا يزال يحتفظ بتخطيطه الأول في العصر الأموي ... ففي عام ٤٦١هـ (١٠٦٨م) امتدت إليه النيران من دار مجاورة له فالتهمت أسقفه، وأحرقت فسيفساءه، وهدمت قبته وشوهت عمارته. ثم أصلح وأعيد إليه بهاؤه القديم. وفي عام ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) حدث زلزال عنيف في مصر والشام تسبب في إسقاط قمة المئذنة الشرقية وسقوط ١٦ شرفة، وتشقق القبة المعروفة بقبة النسر وسقوطها. وفي عام ٦٤٦هـ (١٢٤٨م) احترقت مئذنته الشرقية. وفي عام ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) قام الظاهر بيبرس بإزالة الصناديق والخزانة من الجامع، ومنع المجاورين والزهاد من المبيت فيه، وأصلح وزراته وفسيفساءه، ونظف عمده، وذهّب تيجانها، وبنى مشهد زين العابدين.

وعني الملك الناصر محمد بن قلاوون بتجميل هذا الجامع، فأمر بإصلاح وزراته الرخامية. وفي عام ٦٨١هـ (١٢٨٢م) احترق سوق اللبادين وسوق جيرون، وامتدت النيران منهما إلى سور الجامع. وفي عام ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) احترق المسجد بسبب الأسواق التي كانت تحيط به، ثم أعيد بناء منارة عيسى. وفي عام ٧٩٤هـ (١٣٩١م) احترق سور الزجاجين والجلوديين والنحاسين والوراقين والصاغة، واحترق الجامع ما عدا قبة زكريا. ثم احترق الجامع مرة أخرى عام ٨٠٣هـ وسقطت أسقفه وأزيلت أبوابه.

وفي عام ١١٧٣هـ (١٧٥٩م) تهدمت أجزاء من قبلة النسر والمجنبة الشمالية على إثر زلزال. وفي عام ١٣١٠هـ أحرق المسجد، ثم أصلح

القسم الشرقي منه عام ١٣١٧هـ (١٩٠٠م) وتم إصلاح القسم الغربي منه بعد ذلك. ولم يتبق من المسجد القديم إلا بقايا من الرخام المجزع في بعض الأبواب وبعض الفسيفساء على عقود الأبواب وعقود الصحن وخواصر القيود. وبقيت في صحن المسجد قبة بيت المال، وهي بناء مثمن يقوم على ثمانية أعمدة رخامية وتعلوه قبة مكسوة بالرصاص.

ولجامع دمشق في وقتنا الحاضر ثلاث مآذن : إحداها المئذنة القديمة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي، وإحدى المئذنتين الأخريين من بناء السلطان الملك الأشرف قايتباي. أما الفوارة الرخامية المقامة في وسط الصحن فترجع هي وقبتها إلى عام ٣٩٦هـ (١٠٠٥م).

ولقد زار هذا الجامع عدد كبير من الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، ووصفوه وصفاً دقيقاً. ومن هؤلاء المؤرخ الجغرافي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البناء الشامي المقدسي، فقال : " قد رفعت قواعده بالحجارة، وجعل عليها شرف بهية، وجعلت أساطينه أعمدة سود على ثلاثة صفوف واسعة جداً. وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة، وأدير على الصحن أروقة متعالية فوقها عقود صغيرة، وقد بلط جميعه بالرخام، وكسيت جدرانه إلى ارتفاع قامتين بالرخام المجزع، ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة المذهبة، وبها صور أشجار وأمصار وكتابات في غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة .. وطليت رءوس الأعمدة بالذهب وعقود الأورقة وجدرانها كلها مرصعة بالفسفساء، والشرافيات مكسوة من الوجهين بالفسيفساء، والسطوح كلها مكسوة بالرصاص، وعلى المثمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد، مرصعة حيطانه بالفسيفساء، وفي المحراب وحوله فصوص عقيقية وفيروزية كأكبر ما يكون من الفصوص، وعلى الميسرة محراب آخر دون هذا .. وعلى رأس القبة أترجة فوقها رمانة كلتاهما ذهب ".

ثم يذكر الأبواب التي يدخل منها الداخلون إلى الجامع فيقول : "ويدخل إليه العامة من أربعة أبواب : باب البريد عن اليمين كبير،وهو

مكون من ثلاث فتحات، غشيت مصاريعها بالنحاس المذهب، وعلى الباب وجانبيه ثلاثة أروقة، كل باب منها يفتح إلى رواق طويل قد عقدت قناطره على أعمدة رخام، وكسيت جدرانه بالرخام والفسيفساء، وجميع السقوف مزوقة أحسن تزويق، وفي هذه الأروقة موضع الوراقين ومجلس خليفة القاضي. وهذا الباب بين المغطى والصحن يقابله من اليسار باب جيرون على ما ذكرنا. غير أن الأروقة معقودة بالعرض، يصعد إليها في درج يجلس فيه المنجمون وأضرابهم ".

ويشير إشارة سريعة إلى باب الساعات فيقول : " وباب الساعات في زاوية المغطى الشرقية عليه مصراعان ساذجان ".

وهذا الباب هو الذي وصفه الرحالة ابن فضل الله العمري في القرن الرابع عشر للميلاد، وذكر أنه سمي كذلك نسبة إلى ساعة مائية يعلم بها كل ساعة " تمضي عليها عصافير من نحاس وحية وغراب من نحاس أيضاً، فإذا تمت الساعة خرجت الحية، وصفرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة في الطست ".

وقد شاهد ابن جبير هذا الباب من قبل، ووصفه وصفاً رائعاً بقوله : " وعن يمين الخارج من باب جيرون، في جدار البلاط الذي أمامه، غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر، قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً .. فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر، قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما : أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني تحت آخرها. والطاستان مثقوبتان، فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة، وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين إلى الطاستين، ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً. وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي، وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها، وتنقضي

الساعات ثم تعود إلى حالها الأول . . .

" ولها بالليل تدبير آخر. وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة، وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مدبراً ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت، عم الزجاجة ضوء المصباح، وفاض على الدائرة أمامها شعاعها، فلاحت للأبصار دائرة محمرة، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل، وتحمر الدوائر كلها .. وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها، وهي التي يسميها الناس المنجانة " وتشبه هذه الساعة ساعة يطلق عليها منجانة تقع على أحد جدران المدرسة البوعنانية بفاس، وكانت مزودة بطاسات وكؤوس من البرونز.

وقد زار جامع دمشق الرحالة الجغرافي أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه، كما زاره إبراهيم بن أبي الليث الكاتب عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م)، ووصفه وصفاً رائعاً ويعد وصف ابن جبير للجامع أروع هذه الأوصاف تصويراً لحقيقة الجامع، وهو وصف تفصيلي دقيق،وذكر تخطيط الجامع في قوله : " وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب، سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة، والخطوة ذراع ونصف. وقد قامت على ثمانية وستين عموداً منها أربع وخمسون سارية وثماني أرجل جصية تتخللها ..".

ثم يصف البلاط الأوسط وقبته فيقول : " وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة، قد نظمت خواتيم، وصورت محاريب وأشكالاً غريبة، قائمة في البلاط الأوسط تقل قبة الرصاص مع القبة التي تلي المحراب .. ".

ثم يصف المآذن الثلاث فيقول : " وللجامع ثلاث صوامع : واحدة في الجانب الغربي، وهي كالبرج المشيد تحتوي على مساكن متسعة

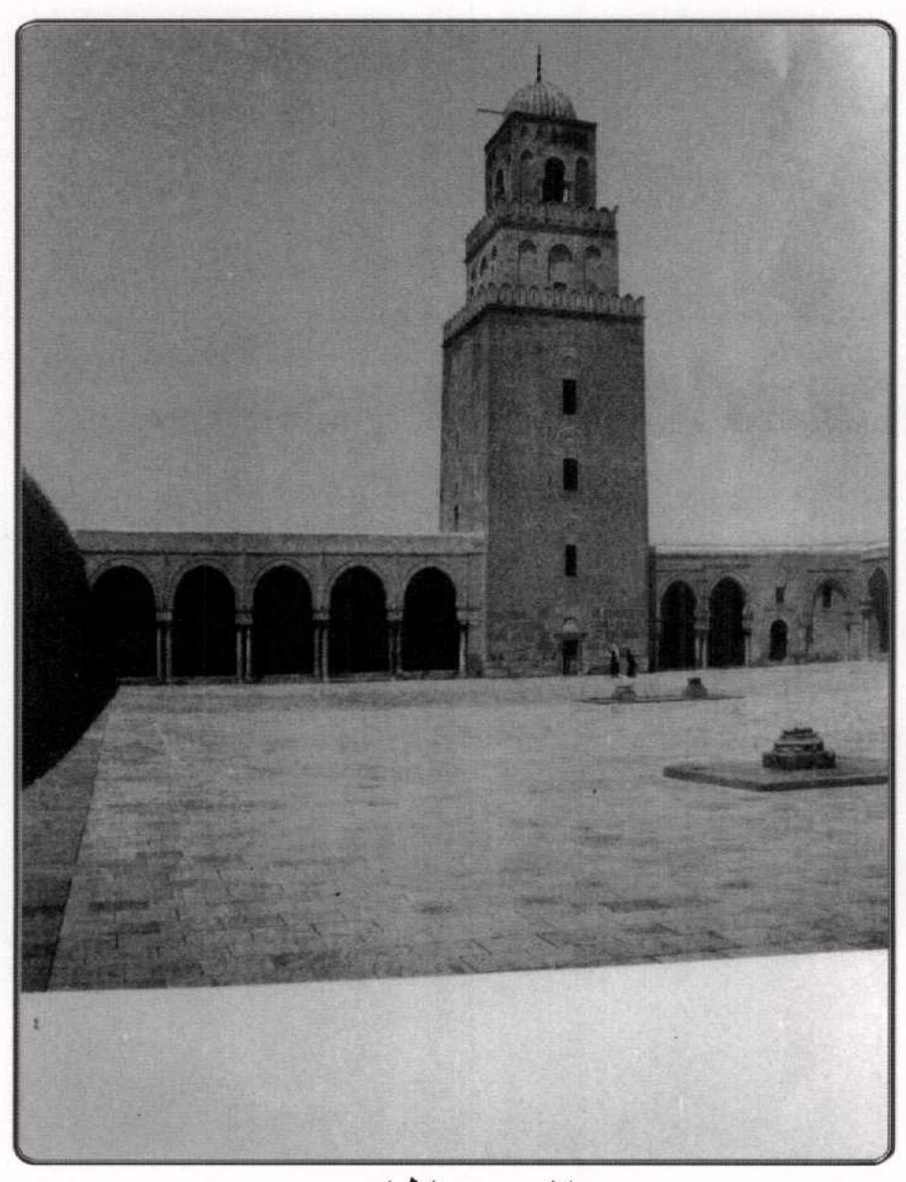
وزوايا فسيحة راجعة كلها إلى أغلاق يسكنها أقوام من الغرباء أهل الخير،و البيت الأعلى منها كان معتكف أبي حامد الغزالي .. وثانية بالجانب الغربي على هذه الصفة، وثالثة بالجانب الشمالي على الباب المعروف بباب الناطفيين ".

ويذكر بيت المال فيقول: " وفي الصحن ثلاث قباب. إحداها في الجانب الغربي منه، وهي أكبرها، وهي قائمة على ثمانية أعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج، مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة كأنها الروضة حسناً، وعليها قبة الرصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة، يقال إنها كانت مخزناً لمال الجامع .. وقبة أخرى صغيرة في وسط الصحن، مجوفة مثمنة من رخام قد ألصق أبدع إلصاق، قائمة على أربعة أعمدة صغار من الرخام، وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطه أنبوب من الصفر يمج الماء إلى علو، فيرتفع وينثني كأنه قضيب لجين يشره الناس لوضع أفواههم فيه للشرب استظرافاً له واستحساناً .. ".

ويذكر ابن جبير أيضاً ما أصاب الجامع من حريق فيقول : " وكان هذا الجامع المبارك ظاهراً وباطناً منزلاً كله بالفصوص المذهبة، مزخرفاً بأبدع زخاريف البناء المعجز الصنعة، فأدركه الحريق مرتين، فتهدم وجدد وذهب أكثر رخامه فاستحال رونقه ..".

ويستمر ابن جبير في وصف الجامع وصفاً طويلاً لا يترك فيه صغيرة أو كبيرة. ومن العجيب حقاً أن يحتفظ جامع دمشق بمشهد رأس القديس يوحنا المعمدان، وكان موجوداً من قبل بالكنيسة المسماة باسمه. وقد زاره ابن جبير ووصفه قائلاً : "ومن مشاهده المكرمة وآثاره المعظمة أولها مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية .. وعليه تابوت خشب معترض من الاسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف..".

الباب الثاني



المسجد الجامع
بالقيروان قاعدة المسلمين في بلاد المغرب





الباب الثانـــي

المسجد الجامع بالقيروان قاعدة المسلمين في بلاد المغرب

تاريخ بناء المسجد

شرع عقبة بن نافع الفهري في بناء مدينة القيروان عام ٥٠ للهجرة، وابتدأ بتخطيط دار الإمارة، ثم عمد إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه، ولكنه لم يحدث فيه بناء.

ويذكر ابن عذارى أنه كان يصلي في موضع هذا الجامع قبل أن يقوم ببنائه "فاختلف الناس عليه في القبلة، وقالوا إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، - فأجهد نفسك في تقويمها. فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس. فلما رأى أمرهم قد اختلف، بات مغموماً، فدعا الله - عز وجل - أن يفرج عنه. فأتاه آت في منامه، فقال له : إذا أصبحت فخذ هذا اللواء في يدك، واجعله على عنقك فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك .. فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير، فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به .. فاستيقظ من منامه، وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف الناس. فلما انفجر الصبح، وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين، إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله : أتسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا. فعلم أن الأمر من عند الله، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير. فركز

لواءه وقال: هذا محرابكم. فاقتدى به سائر مساجد المدينة ".

ولم تلبث المدينة أن عمرت بعد تخطيط الجامع بالدور ومختلف الأبنية والمساجد، وشد الناس إليها الرحال، وعظم قدرها، وتحقق الرجاء من بنائها، وأصبحت بحق قاعدة للمسلمين في بلاد المغرب.

ومنذ ذلك العهد أصبحت قبلة جامع القيروان موضع إجلال الناس وتعظيمهم، فلم يتعرض لها أحد الأمراء بسوء في الزيادات المتتالية التي أجريت بالجامع عامة وببيت الصلاة خاصة. ولم يتغير موضع القبلة، ولم يهدم جدار المحراب، برغم انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح. وما زالت القبلة على ما هي عليه من انحراف حتى يومنا هذا، لما كان من تقديس الناس لبقعتها ولشرف انتمائها إلى عقبة بن نافع التابعي الذي أورث اسمه الجامع، فصار يعرف بجامع سيدي عقبة.

ومثل هذه حدث في قرطبة حيث أسس حنش بن عبدالله الصنعاني وأبو عبدالرحمن الحبلي التابعان قبلة جامعها بأيديهما .. فقد احتفظ المسجد الجامع - مع زياداته المتكررة من جهة القبلة - باتجاهها الذي حدده حنش الصنعاني ولم يجسر أحد الأمراء أو الخلفاء من بني أمية على تغيير هذا الاتجاه، وقد روي أن الحكم المستنصر رغب في تعديل اتجاه قبلة الجامع عند زيادته له، فتصدى له أحد الفقهاء، وذكره بأن أول من نصبها حنش الصنعاني التابعي، وصلى عليها خيار أهل هذه الأمة، فأخذ الخليفة برأيه، وعدل عن تعديل اتجاه القبلة.

وكان جامع عقبة بن نافع فيما يظهر صغير المساحة، بسيط البناء. ويغلب على الظن أن أسقفه كانت تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود .. لذلك لم يكد يمضي على بنائه عشرون عاماً حتى هدمه حسان بن النعمان الغساني، ما عدا المحراب، ووضع في محرابه ساريتين موشاتين بصفرة كانتا في كنيسة. ثم شيد حسان على موضعه مسجداً جديداً فيما بين عامي ٧٨ - ٨٣ للهجرة (٦٩٣ - ٦٩٧ م) احتفظ فيه بمحراب عقبة. وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة للقبلة تجنباً لتغيير جدار المحراب.

ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكري في كتابه " مساجد القاهرة ومدارسها " عن جامع القيروان أن حسان قد زاد في عدد أروقة الجامع، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب (أي أروقة عرضية). ولم يكن للمسجد في ذلك الوقت مجنبات تطل على الصحن وتدور حوله.

وفي عام ١٠٥ للهجرة (٧٢٤م) ضاق الجامع بالمصلين، فأمر الخليفة هشام بن عبدالملك عامله على القيروان وقتئذ، بشر بن صفوان (١٠٣-١٠٩هـ)، بزيادة المسجد. فاشترى بشر أرضاً محيطة بالمسجد من شماله، وضمها إليه، وبنى في الصحن ماجلاً، وأضاف إلى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى، مد بها طول بلاطاته، ويمكننا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم في صف العقود التي تمتد بعرض بيت الصلاة في خط مستقيم، عند نهاية الأسكوب السابع ابتداء من القبلة، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهي عند هذه الحد. ثم بنى بشر مئذنة للمسجد في منتصف جداره الشمالي داخل الصحن، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان، ونصب أساسها على الماء.

ويذكر ابن عذارى أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ للهجرة (٧٧٤م)، ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لا تعدو إصلاحه، وتجديد بعض زخارفه.

وظل المسجد على حالته بعد زيادة بشر بن صفوان .. إلى أن تولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الإمارة بأفريقيا عام ٢٢١ للهجرة (٨٣٦م)، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد دون أن يغير كثيراً من نظامه، أو يبدل من حدوده.

ويذكر البكري أن زيادة الله أراد هدم المحراب، فقيل له إن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه فألح في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره، حتى قال له بعض البناة : أنا أدخله بين حائطين، ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك. فاستصوب ذلك

وفعله، ولم يمسه بسوء، وبنى المحراب الجديد بالرخام الأبيض.

ويغلب على الظن أن بيت الصلاة في عهد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ رواقاً، فهدم زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر، وأقام بدلاً منهما رواقاً واحداً فسيحاً، فأصبح للمسجد ١٧ رواقاً : الرواق الأوسط منها أكثر من بقية الأروقة اتساعاً وارتفاعاً، ويمكننا أن نفسر عبارة المؤرخين بأن زيادة الله هدم الجامع كله، بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد، بعد أن رفعها عما كانت عليه، وبنى قبة على أسطوان المحراب زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التي كسا بها المحراب الجديد. أما أسوار الجامع ومحرابه وأعمدته فظلت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان.

ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الأعمال المعمارية بالجامع أموالاً كثيرة، وأنه زود الجامع بصورته الأخيرة التي نراها في يومنا هذا، وهي صورة لم تتغير على مر الزمن.. وهو الذي وضع للبلاطات نظامها الفريد الذي يشف عن أصالة وابتكار، وذكر ابن عذارى أنه قال : " ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان، وبنياني قنطرة أبي الربيع، وبنياني حصن مدينة سوسة، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قاضي أفريقيا ".

الواقع أن ما قام به زيادة الله من عمارة يعد بناء جديداً للجامع، وهو ما كان يفخر به زيادة الله. وفي عام ٢٤٨هـ (٨٦٢م) تمت زيادة في جامع القيروان. ولا ندري ماذا قصد المؤرخون من ذكر هذه الزيادة، ولكننا نعتقد أن المقصود بها تتمة أعمال البناء التي شرع فيها زيادة الله.

ولمـــا تولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الإمارة زاد في طول الجامع عام ٢٦١هـ (٨٧٥م)، وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الأوسط. كذلك أقام إبراهيم ابن أحمد المجبنات التي تدور حول الصحن. وظل المسجد على هذه الصورة دون أي تغيير حتى أضاف إليه بنو زيري واجهات. وقد سجل تاريخ هذه الإضافات على أحد أعمدة

المجنبة الغربية، إذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي نصها : " هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازي الأشيري في رمضان من عام اثنين وأربعمائة ".

كذلك أقام المعز بن باديس بالمسجد المقصورة الخشبية التي لاتزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب. ويرى الأستاذ " جورج مارسيه " أن المسجد زود بأسقف خشبية وأبواب في منتصف القرن الخامس للهجرة. وفي عام ٦٩٣هـ أمر الخليفة أبو حفص بفتح بابين في الجدارين الشرقي والغربي من بيت الصلاة. ثم تلا ذلك بعض أعمال إضافية بسيطة لم تغير نظام المسجد وبنيته.

* * *

تخطيط المسجد

وجامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الإسلام، وأعظمها مظهراً، إذ يبلغ طوله ١٢٦ متراً وعرضه ٧٧ متراً، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ متراً وعرضه ٣٧ متراً. وصحنه فسيح واسع طوله ٦٧ متراً وعرضه ٥٦ متراً. ولهذا الصحن مجنبات عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر، وتنقسم المجنبة إلى رواقين ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطاً عمودياً على جدار القبلة، تمتد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية. وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب، ولا تعترضهما أية عقود، فهما يؤلفان مجازين متعامدين على هيئة حرف T .

ونلاحظ أن تخطيط جامع القيروان يتميز بظاهرة جديدة. فعلى بلاط المحراب، أو البلاط الأوسط، قبتان : الأولى عند تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة، والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلي الصحن، وتعرف القبة الأولى بقبة المحراب، والثانية بقبة باب البهو. وقد أثر هذا النظام الجديد الذي ابتدعه بناء زيادة الله على أنظمة المساجد التونسية الأخرى، فنراه في جامع الزيتونة بتونس، ونراه في مساجد أخرى. كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم في المسجد

الجامع بقرطبة كما سنرى في أبواب الكتاب القادمة.

وتمتد في بيت الصلاة صفوف منتظمة من العقود، تحملها أعمدة قديمة اتخذت من الكنائس المهدمة، وأعيد استخدامها بالجامع. ونظراً لقصر هذه الأعمدة، وتفاوتها في الارتفاع، توسل المهندسون المسلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد وتسوية ارتفاع الأعمدة، فاستعانوا بمكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة، محاطة من أعلى بطنوف ومن أدنى بقرم. ثم رفعوا فوق هذه الحدائر عقوداً متجاوزة تشبه حدوة الفرس.

وعقود مجنبات الصحن تقوم على أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بركيزة ضخمة، وهذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتاً، ومحراب الجامع جوفة في جدار القبلة يرجع تاريخها إلى أيام عقبة بن نافع. وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تختفي وراء لوحات مخرمة من الرخام الأبيض.

ويرى الأستاذ " مارسيه " أن وجود هذه الجوفة أمر طبيعي، لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفها فراغ معتم حتى تتضح نقوشها، وأن هذا الاحتيال البسيط أدى إلى اختلاق الناس لأسطورة المحراب. ويؤيده الأستاذ "كريسويل " في هذا الزعم، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التي نشاهدها من بين خروم المحراب الجديد، هي محراب عقبة القديم. ويقول إن هذه الخروم التي تبطن لوحات المحراب وتملؤها، قصد بها أن تكون ستارة قائمة لتوضيح الزخرفة الرخامية المخرمة. ولا يعتقد " كريسويل " أن جامع عقبة كان به محراب مجوف.. فالمحاريب المجوفة، في رأيه، لم تظهر في الإسلام حتى زمن الوليد.

وقد اعترض الدكتور أحمد فكري على هذه الآراء، وفندها كلها، وأدلى برأيه في ذلك واضحاً معززاً بالأدلة والحجج والبراهين، وأثبت أن هذه الجوفة التي تظهر من خلال لوحات الرخام هي محراب عقبة القديم.

ويدعم جدران المسجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران، وظيفتها ليست - كما قد يبادر إلى الذهن - دعم البناء، وتحمل ضغط عقود بيت الصلاة .. لأن هذه الركائز أقيمت في

مواضع بعيدة عن نقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها، وإنما الغرض منها أن تتمشى في مظهرها مع الدعائم البارزة التي تكتنف أبواب المسجد فتضفي عليه جمالاً، لأن هذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها زيادات منفرة تشوه المظهر الخارجي للمسجد.

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالي للجامع، وتتكون من ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة. والطابق الأدنى مربع القاعدة، تنحدر جدرانه إلى الداخل انحداراً خفيفاً فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازاً وثباتاً، وبنيت قاعدة هذا الطابق، حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف متر، بقطع حجرية ضخمة مصقولة، أما بقية الطابق فمن كتل حجرية مستطيلة تشبه قوالب الآجر، ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه أصغر كثيراً من الطابق الثاني، وتزدان جدران الطابق الثاني بطاقات ثلاث مسدودة، ومعقودة في كل وجه من أوجهه، في حين يزداد كل وجه من أوجه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان، ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق شرفات على هيئة عقود متصلة مفرغة في وسطها.

ويدور بداخل المئذنة درج ضيق، سقفه على هيئة قبوات نصف إسطوانية، وتتخلل جدران المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج، ولكنها تتسع كلما نفذت في الجدران، وظيفتها إضاءة الدرج، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئذنة عقود مخففة للضغط تشبه حدوة الفرس. وينسب الدكتور أحمد فكري هذه المئذنة إلى بشر بن صفوان الذي بناها عام ١٠٥هـ بأمر الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك. وقد اتخذت هذه المئذنة نموذجاً للمآذن الإسلامية .. لا في المغرب والأندلس فحسب، بل في بعض المآذن المصرية، مثل مئذنة مسجد الجيوشي وضريحه، ومئذنة مدرسة قلاوون وقبتها. وأصبحت مئذنة جامع القيروان تؤلف طابعاً مغربياً بحتاً.

مسجد القيروان

وابتكارات فنية معمارية رائعة

عني زيادة الله بقبلة جامع القيروان عناية فائقة، فجعلها محوراً

للجامع، وركز فيها كل روائع زيادته .. إذ كانت العنصر الأساسي للجامع، وأكثر أجزائه أهمية منذ أيام عقبة بن نافع. وقد رأينا كيف هدم الرواقين التاسع والعاشر من أروقة المسجد القديم، وأقام بدلاً منهما رواقاً فسيحاً يزيد اتساعه عن بقية الرواقات الأخرى، ويتعامد مع أسكوب المحراب المحاذي لجدار القبلة .. فأقام زيادة الله على أسطوان المحراب، عند تقاطع هذين الرواقين الكبيرين أمامه، قبة أودعها كل روائع الفن المغربي من زخارف ونقوش. وهذه القبة هي أقدم قباب المسجد في الوقت الحاضر . . .بل أقدم قبة في بلاد المغرب كلها، وعلى مثالها أقيمت قباب المحراب بمساجد المغرب والأندلس.

وفي عهد إبراهيم بن أحمد أقيمت عام ٢٦١هـ، على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن، قبة أخرى تم بها تتويج هذا الرواق من جهتيه القبلية والجوفية، واستكمل بها بيت الصلاة تناسقه واتزانه. وأصبح بناء قبتين على البلاط الأوسط ببيت الصلاة، منذ ذلك الحين، قاعدة عامة اتبعتها المساجد الأندلسية والمغربية.

ولا شك أن بناة زيادة الحكم المستنصر في جامع قرطبة أخذوا بهذا النظام المعماري الفريد، فطبقوه في هذه الزيادة، وأقاموا بلاطاً للمحراب يتوسط بلاطات الزيادة المستنصرية، وأسكوبا بحذاء جدار المحراب أكثر تساعاً من بقية الأساكيب، ثم أقاموا قبتين : الأولى على بلاط المحراب عند مدخل الزيادة، والثانية على هذا البلاط ذاته عند منتهاه أمام المحراب ثم أحاطوا هذه القبة الأخيرة بقبتين جانبيتين أكسبتا زيادة الحكم المستنصر تناسقها الشامل، وعمارتها الفريدة.

ثم أقام الخليفة أبو حفص عام ٦٩٣م قبتين تعلوان مدخلي بيت الصلاة شرقاً وغرباً، وهناك قبتان أخريان : إحداهما تعلو المئذنة، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالمجنبة الغربية ويذكر الدكتور أحمد فكري أنه بالرغم من اختلاف مظهر هذه القباب، فإنها تشابه جميعاً في البنيان، وتتشعب من فكرة واحدة .. فكرة خصيبة متزنة وأصيلة.

وتتكون قبة المحراب بجامع القيروان من ثلاثة أجزاء : القاعدة المربعة، والعنق الأوسط الدائري، والخوذة الكروية.

وتقوم القاعدة المربعة على أربعة عقود : الشرقي والغربي منها في بلاط المحراب (عموديان على هذا المحراب)، والشمالي في أسكوب المحراب (مواز له)، والرابع ملتصق بجدار القبلة فوق الطرة المربعة المحيطة بجوفة المحراب. ويعلو كل ركن من أركان هذه القاعدة المربعة مقرنص كبير يمثل جوفة مقوسة معقودة تشبه قوقعة رأسها مفصص، إذ ينقسم تكورها إلى فصوص تتفرع من المركز الواقع في ركن القاعدة ويشغل منتصف كل جانب من جوانب القاعدة عقد يتصل كتفاه بكتفي عقدين مقرنصين، فيتألف من ذلك مجموعة من ثمانية عقود تحول مربع القاعدة إلى مثمن، وتترك هذه العقود الثمانية بين منحنياتها فراغاً تشغله مقرنصات أخرى صغيرة معقودة على درجات ثلاث.

أما العنق فيشبه أسطوانة دائرية تزدان بأربع وعشرين طاقة معقودة، منها ثماني نوافذ يدخل منها الضوء .. وتستند هذه الطاقات جميعاً على عمد صغيرة. أما الخوذة الكروية للقبة فترتكز على هذه الأسطوانة الدائرة. وتنقسم الخوذة إلى أربعة وعشرين ضلعاً بارزة متفرعة من رأس الخوذة وتحمل هذه الضلوع فصوصاً عددها مثل عدد الضلوع.

وتشبه قبة باب البهو القبة السابقة، برغم ما حدث فيها من تغيرات وإصلاحات. فعناصرها كعناصر قبة المحراب : قاعدة مربعة في أركانها مقرنصات معقودة تحول طابق المربع إلى مثمن، ثم طابق دائري مؤلف من أربع وعشرين طاقة معقودة، ثم طابق ثالث هو الخوذة ذات الضلوع البارزة. وقد تأثرت بقية قباب المسجد بقبتي المحراب وباب البهو .. فإن قبة للاريحانا تتكون من ضلوع ومقرنصات وأعمدة، وتلك عناصر القبتين السابقتين.

ويرى الأستاذ الدكتور أحمد فكري أن قبلة المحراب التي أقامها زيادة الله على مثال قبة كانت قائمة بالمسجد قبل زيادة الله بن الأغلب.

ثم جاءت قبة زيادة الله بالمحراب تطوراً لها. ويرجح أنْ تكون هذه القبة القديمة هي قبة المدخل الغربي إلى الصحن، وقد عزز هذا الرأي بأدلة مقنعة توصل إليه من عمارة القبتين.

وانتشر نظام قباب القيروان في المغرب والأندلس، واتخذت نموذجاً لقباب جامع الزيتونة بتونس الذي يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان بلاط المحراب، كما هو الحال في جامع القيروان، هما : قبتا المحراب وباب البهو. وعناصر قبة المحراب بجامع الزيتونة مثل عناصر قبة المحراب بجامع القيروان، وعدد العقود والأعمدة والضلوع في القبتين متساو.

لذلك انتشر نظام قباب القيروان وتونس في الأندلس في صورة أكثر تطوراً من الوجهة المعمارية. فإن مهندس الحكم المستنصر لم يقلد نظام توزيع القباب على بلاط المحراب فحسب، بل اقتبس بناء قبابه من قباب القيروان وتونس. لقد أخذ من قباب القيروان وتونس فكرتها المعمارية، وطبقها على قبابه مع شيء من الأصالة والابتكار، فجاءت قبابه في صورة حية جديدة. وقباب قرطبة قوامها هيكل من الضلوع المتقاطعة فيما بينها بحيث تؤلف أشكالاً نجمية، تقوم في وسطها قبيبة مفصصة. وكسيت هذه الضلوع من أعلاها بحشو من البناء، وطبقت في الفراغ الحادث من تقاطع العقود أو الضلوع البارزة زخارف جميلة من قواقع ونجوم وفصوص.

ويرى الدكتور فكري أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان. واتفاق هذه الفكرة في اعتقاده، يرجع إلى وحدة تفكير رجال الفن المسلمين، وارتباطهم بعوامل واحدة. وتتمثل عناصر هذه الفكرة متجمعة في قبة المحراب بجامع قرطبة وإن كانت تطورت كثيراً، فتعددت الخطوط الهندسية، وزاد تجزؤ الفضاء، واتخذت العقود والأقواس والضلوع والأعمدة رسماً أكثر وضوحاً. أما المقرنصات فبدت في مظهر زخرفي بحت.

أما الأستاذ " لامبير " فيرى أن ضلوع قبة محراب القيروان مرتبطة

كل الارتباط بفصوص الخوذة الكروية، أما ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة فمستقلة كل الاستقلال عن الغطاء الذي يكسو هيكل الضلوع، ولكنه يرى أن ضلوع قبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس تبدو مختلفة اختلافاً يسيرًا عن ضلوع قبة المحراب بجامع القيروان، وأن فصوص الخوذة بقبة الزيتونة تبدو منفصلة عن هيكل من العقود البارزة المستقلة، قطاعها مستطيل يشبه في حد ذاته ضلوع قبة المحراب بجامع قرطبة كما سنرى عند الحديث عن جامع قرطبة.

ويبدو أن مهندس جامع قرطبة استغل هذه الفكرة في بناء قبة المحراب بزيادة الحكم المستنصر، وابتكر عليها فكرة تقاطع هذه العقود البارزة التي استلهمها من شبكات العقود المتقاطعة والمتداخلة والمتراكبة في البلاط الأوسط وأسكوب المحراب، وقد توج الفراغ الحادث من تقاطع هذه العقود بقبيبة ذات ثمانية فصوص. أما القبيبة الوسطى بقبة الضوء - وهي القائمة على مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم - فتتكون من اثني عشر فصاً، وتذكرنا بقبة المحراب بجامع القيروان.

وانتقل نظام التقبيب القائم على تقاطع الضلوع، من قرطبة إلى طليطلة، فنراه مثلاً في صور مختلفة بمسجد باب مردوم، ومن قبابه ما يبدو رباعياً منحرفاً ذا أقطار، كأنه قبوتان من الطراز القوطي إحداهما داخل الأخرى، ومنها ما يبدو مثمناً، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع فيه المحراب بقرطبة. ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشاراً كبيراً يشهد به ذلك العدد الهائل الذي نراه في الكنائس المسيحية بطليطلة والمزان بقشتالة وتوريس دل ريو ودير موساك وأولورون وسان بليز. ومن هذه القبوات الأخيرة استلهم الفنانون الفرنسيون فكرة قبواتهم القوطية.

فإن الفكرة بدأت من جامع القيروان وانتهت بالقبوات القوطية الفرنسية. وخلال هذه الرحلة الطويلة فقدت القباب الإسلامية فكرتها المعمارية الأصيلة، واتخذت مظهراً زخرفياً بحتاً نراه بارزاً في أوضح

صورة بقبة المسجد الجامع بتلمسان، وقبة البروديين بمراكش، وقبة جامع تازة.

* * *

زخارف المسجد

يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام، ويتجلى ذلك في عقوده الملساء بجدرانها وقرمها وطنفها وتيجانها، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات، فعلا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة في صورة رواق مصغر - كما هو الحال في عقد باب المقصورة القديمة - أو أحاط بالعقد إفريز مستطيل تفشت فيه مربعات موضوعة على رءوسها، كعقد باب الميضأة. ثم تطور المظهر الزخرفي بمرور الزمن، وازدان بعض عناصر الجامع بزخارف آية في الأناقة والجمال كزخارف المحراب وقبته وبلاطه.

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام نقشت فيها زخارف نباتية مخرمة، يتسرب الضوء من بين خرومها، وينفذ الهواء من بين فتحاتها الرشيقة، ويلمح الرخام الناصع بين ظل الفراغ المعتم الذي يتخلل الزخارف. ولقد اصطفت هذه اللوحات الرخامية صفوفاً أربعة في كل صف سبع حشوات عرض كل منها ٤٤ سنتيمترًا. ويزدان الشريط الأفقي العلوي الذي يفصل الصف العلوي من الحشوات عن السفلي بكتابة كوفية منقوشة في الرخام نقرأ فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد. ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد. محمد رسول الله ﷺ ".

وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم على التوريقات، وهندسية تكثر فيها المربعات. والدوائر والخطوط المتقاطعة. وقوام هذه الزخارف ورقة العنب وسعف النخيل. وتبدو ورقة العنب في صور مختلفة، فهي مقصوصة أو ملفوفة أو ممتدة أو منكمشة. وكثيراً ما يتفرع

من السيقان الملتفة أوراق وزهور تملأ الفراغ، أو تتفرع هذه الأوراق النباتية من ساق متوسطة منحنية في تموجات.

وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان بزخرفة في صورة قواقع، ولكن العدد الأكبر منها يشغله فرعان منحنيان متناسقان، يتشابكان أحياناً على امتداد المحور، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة.

وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية التي تغطي نوافذ القبة، وتتكون زخارفها عامة من ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية، أو من فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق العنب وعناقيده، وتشبه هذه الزخارف، الزخارف التي نشاهدها على واجهة مسجد الأبواب الثلاثة بالقيروان، الذي أقامه محمد بن خيرون المعافري الأندلسي عام ٢٥٢ للهجرة (٨٦٦م). ويكسو الجدران التي تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان زخرفة هندسية ونباتية تمتد إلى بنيقات العقود، وتعد من أروع أمثلة الزخرفة في هذا العصر.

وتزين عقد المحراب وما يحيطه من جدار المحراب تربيعات من الخزف ذي البريق المعدني (قراميد)، تنسب إلى أبي إبراهيم أحمد بن محمد، ٢٤٢ـ ٢٤٩ للهجرة (٨٥٦ـ٨٦٣م)، وقد استقدم أبو إبراهيم هذه القراميد من العراق، وينعكس ذلك على زخارفها المتأثرة بالتقاليد الساسانية.

أما أعمدة المسجد وتيجانه، فأغلبها وثنية أو مسيحية استخرجها المسلمون من الأطلال القديمة بقرطاجنة وتيبسا وتمجاد. وكانت عادة استعمال الأعمدة الرومانية شائعة في أفريقيا في ذلك الوقت.

وكان الأمراء يشترون التيجان الجميلة، ويرصعون بها مساجدهم وأبنيتهم. وقد قيل إن عمودين من الرخام الأخضر دفع فيهما يزيد بن حاتم مبلغاً كبيراً من المال. وهناك أعمدة وتيجان أخرى اشتراها أفراد وتبرعوا بها للمساجد رغبة في ثواب الله. وفي جامع القيروان عمودان عليهما نقش كتابي نقرأ فيه كلمة " المسجد " مما يقطع بأنهما من بين الهبات التي

وهبها بعض الناس للمسجد.

وبقية المحراب اثنان وثلاثون عموداً صغيراً، تيجانها الصغيرة من الطراز الكورنثي تمثل ورقتي أكنش عريضتين ملساوين ملتحمتين في أدنى التاج، ثم تتفرعان وتبتعد إحداهما عن الأخرى فتبدوان على هيئة "٧"، وتبرز في الفراغ الناشىء بينهما ورقة بسيطة بيضة ترى أحياناً في القرمة.

ومنبر جامع القيروان يعد أروع أمثلة الحفر في الخشب في بلاد المغرب، وينسب هذا المنبر الرائع إلى أبي إبراهيم أحمد عام ٢٤٨ للهجرة (٨٦٢ م)، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والخطوط، ونباتية تتمثل في أوراق العنب. وبالجامع مقصورة خشبية صنعت عام ٤٣١ للهجرة على يدي المعز بن باديس، أبوابها غنية بالزخرفة والكتابة.

وجامع القيروان هو أقدم مساجد المغرب الإسلامي، والمصدر الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية عناصرها، ومنه انبثقت الأفكار المعمارية والزخرفية وتطورت في العصور المختلفة، ومن قبابه انبعثت فكرة القباب ذات الضلوع المتقاطعة، ومن مئذنته اتخذت المآذن المغربية والأندلسية طابعها الذي تتسم به حتى اليوم، ومن عقوده المتجاورة والمفصصة وتوريقاته الزخرفية، نشأت التوريقات الأندلسية التي تتجلى في أروع صورة بجامع قرطبة .. وهكذا لعب هذا الجامع دوراً هاماً في الفن الإسلامي عامة، والفن الأندلسي المغربي بوجه خاص.

* * *

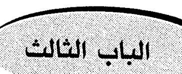
الباب الثالث



جامع الزيتونة

أقدم جامعة إسلامية رعت مواكب العلم و العلماء





جامــع الزيتونــة أقدم جامعة إسلامية رعت مواكب العلم والعلماء

يرتبط تاريخ الثقافة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالمسجد. والفضل في انتشارها وازدهارها إنما يرجع إلى المسجد.

وقد كان أول عمل قام به الرسول ﷺ حينما هاجر من مكة إلى المدينة هو تأسيس المسجد النبوي الذي صار للمسلمين مسجداً ودار شورى ومدرسة لدراسة شؤون الدين والدنيا وبداية انطلاق ونقطة ارتكاز للمجتمع الإسلامي.

وقد اقتصر المسلمون في الصدر الأول على استعمال كلمة المسجد ثم استعملوا كلمة " المسجد الجامع " وبعدئذ اقتصروا على الصفة فقالوا المسجد الكبير الذي نصلي فيه الجمعة " الجامع " لأنه يجمع الناس لوقت معلوم ولما افتتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه البلدان كتب إلى الولاة في العراق ومصر والشام أن يتخذوا مساجد للجماعة ومساجد للقبائل فإن كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة أو المسجد الجامع.

هذه المساجد الجامعة أو الجوامع كانت في نفس الوقت الجامعات الإسلامية التي بدأت في مختلف حواضر العالم الإسلامي في تأدية هذه المهمة العلمية الجليلة في عصر مبكر، وكان اضطلاعها بها في البداية من الأمور الطبيعية التي تتفق مع روح الثقافة الإسلامية الأولى، وهي ثقافة كان يغلب عليها الطابع الديني وتقوم في جوهرها على علوم القرآن والسنة.

وكان من الطبيعي أن يكون المسجد الجامع أو بعبارة أخرى المسجد الرئيسي مركزاً لهذا النوع من الثقافة الدينية في عصر كانت الدولة الإسلامية، تتسم فيه بالطابع الديني وتتخذ من الإسلام ورسالته شعارها الرسمي.

فلما انتهى العصر الأول وأخذ الطابع الدنيوي يغلب على الدولة الإسلامية وبدأت العلوم الدينية تأخذ مكانتها إلى جانب العلوم الدينية بقي المسجد الجامع، كما كان في الماضي مثوى لهذه العلوم الجديدة. وتحولت المساجد الجامعة في أنحاء العواصم الإسلامية الكبرى إلى نوع من الجامعات الدينية والمدنية معاً تدرس فيها إلى جانب علوم القرآن والسنة، علوم اللغة والآداب وما إليها.

ومن المساجد الجامعة التي ظلت تؤدي رسالتها الدينية والعلمية لعدة قرون.. جامع الأعظم بتونس أو جامع الزيتونة.

والجامعة الزيتونية، أو جامع الزيتونة، أقدم جامعة إسلامية موجودة في عصرنا هذا، فإن جامع الزيتونة الذي تم بناؤه سنة ١٤١هـ كان ابتداء دراسة العلم فيه من وقت تمام بنائه. إذ كان في تونس في منتصف القرن الثاني من كبار العلماء مثل علي بن زياد صاحب الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٨٣م، ومثل معاصره عبدالرحيم بن أشرس من أصحاب مالك، ومن بعدهم مثل زيد بن بشر التونسي المتوفى سنة ٢٤٢، فقد ذكر في ترجمته أنه كان يلقى دروسه بجامع الزيتونة، وما كان طلبة العلم يأخذون العلوم غالباً إلا في جامع الزيتونة إذ لم تكن بتونس أيامئذ مدارس لطلبة العلم، فجامع الزيتونة كان في هذه الحقبة مماشياً لجامع القيروان.

* * *

موقع الجامع من حيث المكان والزمان

يقع جامع الزيتونة في الوسط الهندسي من مدينة تونس العاصمة

ويتقاطع فيه شارعان رئيسيان، أحدهما ينطلق شرقاً وغرباً والآخر شمالاً وقبلة فيقسمان المدينة إلى حاراتها الأربع.

وهو بهذا الموقع يحاكي مواقع جوامع العواصم الإسلامية في المغرب والمشرق (قرطبة، ناس، بجاية، الجزائر، عنابة، طرابلس، بنغازي، القاهرة، دمشق، بغداد، مكة، المدينة، الكويت، استنبول) وكذلك كنائس العواصم : باريس، روما، لندن، والمعابد القديمة عند اليونان والرومان والفينيقيين والآشوريين والمصريين والفرس والهنود.

وموقعه من حيث الزمان فهو رابع جوامع القارة الأفريقية، فجامع الفسطاط أنشئ سنة ١٣هـ وجامع الناقة بطرابلس (جامع عمرو بن العاص) سنة ٢٣هـ وجامع عقبة بالقيروان سنة ٥١هـ وجامع الزيتونة سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) إثر فتوحات عبدالله بن الحجاب وعبدالرحمن الغافقي بفرنسا بين برداله (بوردو) وبلاط الشهداء على نهر لوار (بواتييه).

والجامع الزيتوني رباط أو ثكنة (حصن) للمتطوعين لحراسة الثغور، ولما كانت المكاسب الإسلامية العربية تحتاج إلى حماية. فقد ألف رباط على الساحل من طنجة إلى الإسكندرية لحماية الثغور وحراساتها ورقابتها من الكومندوز والقرصنة، فالجامع رباط وجامع، بل رباط فيه جامع. لأن خطب الجهاد الدفاعي كانت تقع على منبره من عهد عبدالله بن الحجاب إلى عهد المقاومة الوطنية. ومظاهرات الجهاد والمقاومة كانت تخرج منه إلى آخر يوم من أيام المقاومة وحتى بعد الاستقلال، لذلك فإن جامع الزيتونة رباط لحماية الثغور معمارياً وتأسيسياً وسوقياً.

أ - **معمارياً**: فهو يتركب من أربع قلاع. في كل ركن قلعة مبنية بصناديق الحجر الكبرى، وفيها صومعة مستديرة للاستكشاف ومراقبة العدو في البحر.

ب - **تأسيسياً**: لا ننسى أن تونس على قاب قوسين من صقلية ومن قوصرة ومن مالطة التي بها فرسان رودس، وبالإضافة إلى فرسان مالطة. وأن جامع الزيتونة لا يبعد إلا ٣٥٠متراً عن باب البحر الذي كانت تدخل

منه السفن إلى العاصمة، وقد وصف لنا ياقوت هذا الوضع في معجمه البلداني فأغنانا عن الزيادة، وهو عين الوضع الموجود الآن.

جـ - سوقياً: إن الأسواق التي حول جامع الزيتونة هي وظيفية بالإضافة إلى الجامع، فلما كان الجامع رباطاً وعلى مقربة منه باب البحر الذي منه قد يدخل العدو فقد كانت الأسواق التي بينهما تصنع السلاح اللازم.

* * *

جامعة علمية إسلامية

لا يجب أن ننسى أن التونسيين كانوا على مذهب الأوزاعي أولاً، وقد جاء به الجند الشامي إلى تونس، ومنها انتشر بالمغرب والأندلس، ثم صارت على المذهب المالكي بعد وفاة الأوزاعي (١٥٧هـ) فانطلق هذا المذهب بواسطة علي بن زياد المتوفى سنة ١٨٣هـ بتونس. من تونس إلى القيروان، ومن القيروان إلى بقية المغرب والصحراء والأندلس وجزر البحر المتوسط.

وقد كان بالبلاد التونسية في الحقيقة ثلاثة مذاهب فالحكومة الأغلبية (١٨٤هـ - ٢٩٦هـ) لما كانت تابعة للدولة العباسية فهي حنفية. وكان أسد بن الفرات فاتح صقلية (٢١٢هـ) يدرس المذهب الحنفي بالجامع الأعظم بالقيروان والشعب العربي أو المستعرب كان مالكياً، وكان سحنون يدرس المذهب المالكي بالجامع الأعظم بالقيروان. والشعب البربري الضارب بالجبال والصحاري والجزر في معظمه على مذهب عبدالله بن الأباضي. ولا يزال المذهب الأباضي في بعض المناطق.. ومع أن المذاهب ظهرت في تونس العاصمة مبكرة، فإن التعليم ظهر بالقيروان مسبقاً!، ولم ينتقل التعليم إلى جامع الزيتونة رسمياً إلا بعد انتصاب الموحدين بها كدولة (٦٠٦هـ) بعد أن كان في عاصمة الأغالبة (القيروان وعاصمة الفاطميين - المهدية) ابتداء من ٣٠٦هـ وقد

قام بهذا التعليم التونسيون والصقليون المهاجرون (ولا سيما آل الصقلي في تعليم الطب) والأندلسيون (ولا سيما في النحو، ابن عصفور وابن القصار، وفي العلوم، والقلعاوي والأبلي والواداياشي) خصوصاً بعد سقوط إشبيلية بأيدي الأسبان، فجاء أمثال ابن خلدون وابن سعيد وابن أبي الحسين والمالقي والودياشي وابن عصفور وابن الأبار وأضرابهم.

❊ ❊ ❊

تطور التعليم في جامع الزيتونة

وكانت تدرس في جامعة الزيتونة العلوم الشرعية، تفسير القرآن، وعلم الحديث، وعلم الفقه، وعلم العقائد الإسلامية، وفي مفتتح القرن السابع الهجري صارت حاضرة تونس عاصمة البلاد الأفريقية بقيام الدولة الحفصية، تورث جامع الزيتونة جامع القيروان وصار جامعة أفريقية وأصبح زاخراً بالعلماء وطلبة العلم، واتسعت دائرة العلوم فيه بمن رحل إليه من علماء القيروان، والمهدية، ومن وفد إليه من الأندلس فكانت تدرس فيه علوم كثيرة، تفسير القرآن، وعلوم القرآن، وعلوم السنة، والسيرة النبوية، وأصول الفقه، وعلوم العقائد الإسلامية، وما تتوقف عليه من المنطق، والجدل والحكمة، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، وعلوم الأدب العربي من شعر ونقد وعروض وعلوم النثر الأدبي .. ودرجة التعليم فيه تساوي درجة التعليم العالي ودرجة التعليم الثانوي ودرجة منتهى التعليم الابتدائي كشأن الجامعات الإسلامية القديمة، مثل جامعة بغداد وجامعة الأزهر، وجامع قرطبة، وجامعة نيسابور.

وتخرج في جامع الزيتونة ودرس فيه فطاحل أمثال ابن عرفة، وعبدالرحمن بن خلدون، والتيجاني والشاذلي.

ولم يكن للتعليم فيه أيامئذ نظام مسطر، وإنما كان تعليمه يسير بدافع همم طلاب العلم ونصح العلماء لهم وتلقي بعضهم عن بعض الطريقة التقليدية التي لا يحيدون عنها.

وكان يقوم للتدرس كل من بلغ مرتبة علمية تؤهله لذلك وشهد بها لـه مشاهير أساتذته وآذنوه بذلك .. واستمر الحال على هذا الأسلوب مدة الدولة الحفصية. ثم مدة الدايات الأتراك بعد مصير تونس ولاية تركية، ومدة قرن وثلث من زمن الدولة الحسينية، فتلك ستة قرون ونيف كان التعليم فيها على حالة متماثلة أو شديدة التقارب إلى أن انصرفت عناية الأمير الحسيني أحمد باشا إلى سن ترتيب للتعليم بجامع الزيتونة سنة ١٢٥٨هـ فعين ثلاثين مدرساً من علماء جامع الزيتونة في وقته، منتخبين سماهم طبقة أولى، يقوم كل واحد منهم بدرسين كل يوم، وعين لهم جرايات مناسبة، ثم عين اثني عشر مدرساً آخرين سماهم طبقة ثانية، وجعل لهم جرايات دون جرايات أهل الطبقة الأولى يقوم كل واحد منهم بدرسين كل يوم، وعين لإدارة التعليم ومراقبة المدرسين لجنة مؤلفة من أربعة من حكام المحكمة الشرعية، وجعل لهم قيمين يلازمان مراقبة الدروس.

فظهرت بهذا الصنيع نهضة علمية وإقبال على العلوم، وكثر طلبة العلم، وأخذ التعليم الزيتوني يتطور في نظم التعليم المدرسي، وتلاحقت النظم والتراتيب وكانت خطة التدريس من الخطط المعدودة، لا تعطى إلا لمن لـه شهادة التطويع، وأجري عليه امتحان تعلن عنه الحكومة لنيل خطة التدريس من الطبقة الثانية وكان قد فاز على أقرانه في ذلك الامتحان،والانتقال من التدريس في الطبقة الثانية إلى التدريس في الطبقة الأولى لا يناله إلا من فاز على أقرانه من أهل الطبقة الثانية في مناظرة تعلن عنها الحكومة .. وكل من الامتحانين يجري لدى لجنة الحكام.

ثم دعت كثرة الطلاب إلى إحداث فروع للتعليم الزيتوني في بعض جوامع الحاضرة، وجوامع بعض المدن بتونس، وكانت هذه الفروع لا تدرس فيها إلا ما يوازي المرحلة الأولى من التعليم الثانوي التي تقتضي أربع سنوات على الأقل، وهي تدرس أيضاً بجامع الزيتونة، وخصصت لجامع الزيتونة المرحلة الثانية الأخيرة من هذا التعليم الثانوي التي تقتضي

ثلاث سنوات على الأقل، والتعليم العالي الذي يستدعي مزاولة عامين على الأقل لدراسة كتب في العلوم العالية تعينها وزارة التعليم حينئذ ويشهد لمن تثبت له مزاولتها بأنه أتى على المطلوب منه فتكون له تلك الشهادة شرطاً في تخويله حق امتياز امتحان خطة التدريس بالجامع.

أما المرحلة الأولى فينال الذي أتمها شهادة تسمى شهادة الأهلية بعد اجتياز امتحانها والمرحلة الثانية يخول لمن أتمها اجتياز امتحان لنيل شهادة كانت تسمى شهادة التطويع، لأنها تخول المحرز إياها أن يدرس المرحلة الأولى تطوعاً أي بدون جراية، ثم غير اسمها بعد مدة طويلة فسميت شهادة التحصيل وصارت لا تخول حاملها حق التدريس ولو تطوعاً.

وأحدثت للتعليم العالي شهادة لانتهائه تسمى الشهادة العالية في العلوم أو في القراءات، وبهذه الشهادة يمكن لصاحبها أن يدعى إلى التدريس بصفة مكلف، كما أنها شرط في اجتياز امتحان التدريس الرسمي في العلوم أو في القراءات.

ثم اقتضت كثرة الطلاب جامع الزيتونة تخصصية ليكون معهداً للمرحلة الثانية من التعليم الثانوي والتعليم العالي، وألحقت المرحلة الأولى من التعليم الثانوي بالمعاهد الفروع، وفي عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٣م أدخلت نظم جديدة على التعليم الزيتوني، وألحقت ببرامجه مواد كثيرة، وخاصة في العلوم العصرية، ومن أهم ما جاء فيها ما يتعلق بكيفية إدارة أعمال التعليم الزيتوني، إذ أسندت تلك الإدارة إلى شيخ يلقب بشيخ الجامع الأعظم وفروعه، بعد أن كانت منوطة بهيئة النظارة، وأحدث مجلس إصلاح للتعليم يستمر للبحث في الوسائل الصالحة لإدخال التحسين المستمر على أساليب التعليم وجعل للفروع مديرين يديرونها يعينهم شيخ الجامع، ووفر عدد المقيمين وأعوان السلك الإداري.

وجعل للمدرسين وأعوان إدارة التعليم الزيتوني نظاماً للوظائف ومراتبها، وأجورها كنظام الأساتذة وموظفي الحكومة، وأدخلت نظم على

إجراء الامتحانات للحصول على شهادة انتهاء التعليم الثانوي التي صارت تسمى شهادة التحصيل فتجرى لدى لجان من المدرسين يعينهم شيخ الجامع، وأما المناظرات فتجرى لدى لجنة تتألف من أربعة من حكام المحكمة الشرعية.

أما دروس العلوم الأصلية، فأستاذ الدرس يحضر في رأس إحدى ساعات النهار المعينة لدرسه، فيجلس مسنداً ظهره إلى إحدى اسطوانات الجامع، ويحيط به الطلبة في شكل حلقة وهو يلقي الدرس وهم يستمعون إليه، فإذا انتهت الساعة انتهى الدرس فيغادر الطلبة وهكذا.

وكان الطالب يلتحق بتعليم جامع الزيتونة بعد أن يتم حفظ القرآن الكريم، ويصير قادراً على القراءة والكتابة، ويحفظ متوناً في الفقه مثل المرشد المعين ومتن الآجرومية وبعض متن الألفية في النحو، وفي مدة الدراسة يكمل الطالب حفظ الألفية، وحفظ تحفة ابن عاصم في الفقه، وبعضهم يحفظ بعض مختصر خليل أو كله، ومتن الجوهر المكنون في فنون البلاغة، ومتن السلم في المنطق، ويبتدئ بتجويد القرآن وعلم العقائد والفقه والنحو ثم يرتقي فيدرس أصول الفقه، وعلم المنطق، وعلم المعاني والبيان، والبديع، وعلم العروض، ومصطلح الحديث، ويرتقي في دراسة متفاوتة التأليف في هذه العلوم عاماً فعاما.

ثم أدخلت نظم صيرت واجب الانخراط أن يكون الطالب حافظاً الربع من القرآن، وأن يكون يحسن القراءة والكتابة ومبادئ الحساب العمليات الأربع، وأن يكون عمره لا يقل عن اثني عشر عاماً، ويجري التعليم في برنامج معين لكل سنة بما يناسب حال الطالب. ويجري على الطلبة اختبار في نهاية العام الدراسي للنظر في أهليتهم للانتقال إلى السنة التي فوق سنة تعليمهم.

ولما جاءت الحكومة الشعبية كان من جملة النظم التي أحدثتها أن فصلت التعليم الثانوي الزيتوني عن جامع الزيتونة. وألحقته بإدارة التعليم الثانوي الموحد، مع احتفاظه بمميزاته، وأطلق عليه اسم التعليم

الزيتوني، يدبر معاهدة مديرون من المدرسين الزيتونيين يعينهم وزير المعارف. ويرجع نظرهم إلى مدير التعليم الثانوي في وزارة المعارف. وتمحض جامع الزيتونة للقيام بمهمة التعليم العالي للعلوم الشرعية الإسلامية وعلوم اللغة العربية وآدابها.

* * *

جامعـة الزيتونـة

وأعطيت جامعة الزيتونة لقب (الجامعة) وأسندت إليها إدارتها إلى شيخ الجامع الذي لقب رسمياً عميد الجامعة الزيتونية، وصارت الجامعة مشتملة على كليتين : كلية للعلوم الشرعية ويدرس فيها تفسير القرآن وعلوم السُنة والفقه، وأصول الفقه، وتاريخ التشريع، ومقاصد الشريعة، وعلم الكلام، والفرق الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وتاريخ الفلسفة، والمذاهب الفلسفية والمنطق، وعلم النفس، وتاريخ الأديان، والتراتيب الإدارية في الجمهورية التونسية، وكلية لعلوم اللغة العربية وآدابها ويدرس فيها بلاغة القرآن، وأصول اللغة العربية، والبلاغة العالية، ونقد الشعر، وتاريخ الآداب، وتاريخ الأدب العربي، ودراسة آثار مشاهير من الأدباء العرب وتحليل طرائقهم، وعلم النفس ودراسة اللغات القديمة، ودراسة اللغات الحية، وصناعة الخطابة وأصولها، وتاريخ العرب.

ومدة الدراسة في كلتا الكليتين ثلاث سنوات كل سنة منها بامتحان لنيل جزء من شهادة تسمى " الشهادة العالية " مساوية لشهادة الإجازة.

وتشتمل الجامعة الزيتونية على شعبة لدراسة علم اختلاف علماء القراءات القرآنية ينخرط فيها الذين لهم شهادة التحصيل في فن القراءات يدرس فيها قراءة مقدار معين من القرآن بروايات.

والشهادة العالية هذه ترشح حاملها للتعليم في معاهد التعليم الثانوي، ولخطة الحاكمية، وتخوله حق اجتياز امتحان التدريس (المادي

لقيمة التبريز) ولخطط أخرى إدارية وتنفيذية.

أما شعبة القراءات فمدة التعليم فيها سنة واحدة تنتهي بمنح شهادة التخصص في القراءات .. ويشترط في انخراط الطلبة بالجامعة الزيتونية أن يكون الطالب حاصلاً على شهادة نهاية التعليم الثانوي الزيتوني، شهادة التحصيل، وإن كان من غير التونسيين يجرى عليه امتحان في مستوى شهادة التحصيل يثبت تأهله لمتابعة دروس الجامعة.

* * *

النشاط العلمي بالجامعة الزيتونية

لقد ظهر في مدينة تونس منذ أواخر القرن الأول علماء كبار اتخذوها مقراً لهم وتآنسوا برحاب الجامع الأعظم وتكونت حولهم حركة علمية اجتذبت كثيراً من علماء القيروان فرحلوا إليهم وأخذوا عنهم.

ومن أشهر هؤلاء العلماء: أبو محمد خالد بن أبي عمران التجيبي المتوفى سنة ١٢٧هـ الذي سمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وعمرو بن راشد الكناني وأبو يزيد عبدالملك بن أبي كريمة الأنصاري، وأبو كريب عبدالرحمن المعافري البصري المتوفى سنة ١٣٩هـ الذي أجبره والي تونس يزيد بن حاتم على تولي القضاء، وأبو الحسن علي بن زياد العبسي التونسي المتوفى سنة ١٨٣هـ تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد وابن لهيعة، وشيخ البهلول بن راشد وأسد بن الفرات والإمام سحنون وأبي مسعود عبدالرحيم بن أشرس، وأبي خليل هشام بن خليل، وأبي البشر زيد بن بشر بن عبدالرحمن الأزدي المتوفى سنة ٢٤٢هـ وكان أهل القيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد، وكان البهلول يكاتب علياً يستفتيه في أمور الدين.

ووجود هذا العدد الكبير من العلماء في مدينة تونس يوحي بكثافة النشاط العلمي والتدريس الذي احتواه الجامع الزيتوني وجمع كل أولئك العلماء.

وفي العهد الحفصي حين أصبحت تونس عاصمة وانتشر عمرانها وكثرت دورها وأسواقها وأقبل عليها العلماء من كل مكان لم يسع الأمراء الحفصيون في إنشاء حلقات العلم بالجامع الأعظم لانشغالهم بتأسيس كراسي العلم بمدارسهم التي تبشر باتجاهاتهم ومذاهبهم العقائدية، لكن الحلقات التي كانت تلتئم تلقائياً برغبة من الطلبة والعلماء لولعهم بالعلوم الإسلامية وإقبالهم عليها في كل جامع ومسجد وزاوية، رغبة في نشرها وإضافة مسالك جديدة تعين على تطورها. وأول هذه الأماكن جامع الزيتونة منجذب سكان تونس منذ القرون الأولى.

ولم تتعرض مصادر العهد الحفصي لعلماء جامع الزيتونة سوى الرحالة البلوي الذي نقل أنه أخذ في رحاب الجامع الأعظم عن أبي محمد عبدالله بن عبدالله بن عمر بن أبي القاسم بن علي بن عبدالبر التنوخي إمام جامع الزيتونة وخطيب جامع القصبة، جميع ثلاثيات البخاري وحدثه بها بسنده فيها في برنامج روايته.

كما أشاد البلوي بمكانة أبي عبدالله بن برال وتأثيره على المصلين عند قراءته القرآن بالجامع الأعظم. وتحدث السراج عن علماء جامع الزيتونة، فاستعرض بعضهم وأثبت قيامهم بنشاط تدريسي بمدينة تونس كقوله: " كان من مدرسي تونس أو أحد المدرسين الأعلام "، وذكر آخرون عندما ترجم لمحمد بن هارون الكناني التونسي وأبي عبدالله بن عمر فعبر عما يفيد قيامهم بالتدريس بالجامع الأعظم.

وكان أمراء العهد الحفصي ينتدبون العلماء لمدارسهم من بين مشاهير علماء الجامع الزيتوني، وبذلك تكتسب المدرسة مكانة وتعج بطلاب العلوم المختلفة.

* * *

مكتبات الجامع الأعظم

ومن صور النشاط العلمي بالجامع الأعظم تأسيس المكتبات ولم

يهتم الحفصيون في أول الأمر بتأسيس مكتبات بجامع الزيتونة وإنما فكروا في مكتبات خاصة بهم، من ذلك أن أبا زكريا الحفصي أحدث مكتبة بالقصر احتوت على ثلاثين ألف مجلد، وعين لها قيما هو الحسن بن معمر الطرابلسي.

ولم تؤسس المكتبات بالجامع الزيتون إلا في عهد أبي فارس عبدالعزيز (٧٩٦ـ ٨٣٧هـ) الذي أخرج خزانة القصر المشتملة على أمهات الكتب في العلوم المختلفة فبنى لها مقصورة بالجامع الأعظم ووقفها على الطلبة يقرؤونها وينسخون منها، واشترط عدم إخراج أي كتاب خوفاً من الضياع، وعين لها قيمين، وكانت المطالعة والقراءة فيها من أذان الظهر إلى العصر .. ومن حسنات أبي عمرو عثمان إخراجه كتب قصره النادرة ووضعها بالمقصورة الشرقية من الجامع ووقفها على طلبة العلم يستفيدون منها. ثم اقتفى أثره أبو عبدالله محمد بن الحسن بن مسعود بن عثمان فأسس في المكان نفسه المكتبة العبدلية بالرواق الشرقي من الجامع. وعين لها ما تتطلبه من القيمين والمشرفين، وحدد وقت المطالعة والقراءة بها من أذان الظهر إلى ما بعد العصر.

وإذا كانت لجامع الزيتونة هذه المكانة في العهد الحفصي فمن الطبيعي أن تستمر في العهد التركي. وهي التي جعلته هدفاً لهجوم الأسبان فأحرقوه ورموا بكتبه تحت سنابل الخيل.

ولم تسجل المصادر عناية أولاها الأمراء الأتراك للجامع ولا سعوا في تجديد عهوده الزاهرة، ولعل السبب هو ارتباطه بالمذهب المالكي منذ أقدم الأزمنة. ورغم النكبات والمحن التي أصيب بها فإنه أخذ يسترجع قواه فرتب به العلماء دروسهم، ومنهم انتخب الأمراء شيوخاً لمدارسهم التي أحدثوها، ووصف بعضهم بصلاحيته لإمامة جامع الزيتونة تأكيداً على التقوى والكفاءة والعلم.

أما عن أسماء العلماء الذين كان لهم نشاط تدريسي في الجامع الأعظم خلال الفترة التركية فتذكر المصادر عن أشهرهم : أبو زيد

عبدالرحمن الشهير بالعصابي وساسي المقرىء اللذين اشتهرا بالقراءة بالروايات العشر، وعاشور القسطنطيني، ومحمد بن عبدالله، ومحمد حمودة فتاتة، وسعيد الشريف، ومحمد فتاتة الذي أقرأ مغني ابن هشام ومختصر خليل، ومحمد الحجيج الأندلسي، ومحمد الغمادي، وعبدالقادر الجبالي، وسعيد المحجوز، وعدد آخر أشير في المصادر إلى أنهم درسوا بجامع الزيتونة، والمرجح أنهم زاولوا التدريس في الفترة الحسينية.

* * *

الإفتاءات في الجامع الأعظم

وهو الانتصاب بالجامع الأعظم للإجابة على أسئلة العامة فيما يهمهم من أمور دينهم، وكان المفتي يجلس بالجامع بعد صلاة الجمعة أو صلاة العصر ويعرض عليه الناس مشاكلهم فيجيب عليها.

وخطة الإفتاء بتونس لم تأخذ صيغتها الرسمية ولم يعظم نفوذها إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عندما ساد المذهب المالكي وعظم شأنه، أما قبل ذلك فكان ينعت بها كل عارف بأحكام الشريعة متصد للإجابة عن أسئلة العامة.

وأول مفت للجامع الزيتوني، ذكرته المصادر هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن هارون الكناني، ذكره الزركشي مرتين، وقال ابن بطوطة في حديثه عن ابن قداح أنه كان يستند كل يوم جمعة بعد الصلاة إلى أحد أساطين الجامع الأعظم ويستفتيه الناس، وفي مرة أفتى في أربعين مسألة قبل أن ينصرف.

والظاهر أن الإفتاء لم يكن مقتصراً على جامع الزيتونة بل موجوداً في أغلب جوامع الخطبة، إذ كان العامة في حاجة إلى من يفتونهم سواء بمدينة تونس أو غيرها، ويبدو أن السلطة الحفصية راعت هذه الناحية فعينت مفتين في كل الأماكن التي تدعو الحاجة إلى وجودهم.

هكذا كان جامع الزيتونة ركناً أساسياً امتزجت فيه ثقافتنا العربية الإسلامية وتأصلت.

* * *

جامع الزيتونة

تحفة حضارية ومعمارية رائعة

وجامع الزيتونة بتونس من أهم مساجد المغرب، إن لم يكن أهمها بالفعل، لقدم عهده، واحتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة مازالت تدرس فيها علوم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والفقه. وتاريخ هذا الجامع كان يكتنفه الغموض، فقد أغفل المؤرخون وصفه في مدوناتهم التاريخية .. يضاف إلى هذا أنه كان مغلقاً في وجه الأجانب من غير المسلمين، فلم تقم حوله أي دراسة أثرية علمية.

وظل هذا الجامع، مع أهميته، مجهولاً لدى مؤرخي الفن، لا يذكرون عنه إلا إشارات تتعلق بوصف جدرانه الخارجية والأسواق المحيطة به، حتى قام الدكتور أحمد فكري - أستاذ الحضارة الإسلامية، ورئيس قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية - بدراسة هذا الأثر الجليل عملياً بين عامي ١٩٣٢ - ١٩٤٨، ونشر أول أبحاثه عنه في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (الجزء الثاني ١٩٥٢ ص ٢٧ - ٦٤) تحت عنوان :

(La Mosquee Az-zaytouna a tunis Recherches archeolgiques).

ولا يفوتنا أن نذكر بهذه المناسبة أهمية هذا البحث لدى مؤرخي الفن الإسلامي عامة، والفن المغربي بصفة خاصة، باعتباره أول بحث علمي عن هذا الجامع. وقد ضمنه الأثري الكبير آراء ونظريات على جانب كبير من الأهمية، هدمت كثيراً من آراء المستشرقين عن عناصر الجامع - كبلاط المحراب، وعلاقته بمجاز الكنائس - وأوضحت ما خفي من هذا

الفن في عصر الأغالبة والعصر الفاطمي، وعلى هذا البحث الفريد اعتمد هؤلاء المؤرخون في أبحاثهم عن الفن التونسي في القرن التاسع للميلاد.

ويذكر البكري أن حسان بن النعمان أقام مسجداً بتونس عام ٨٤ للهجرة (٧٠٣م). ولكن هذه العبارة المقتضبة لا تشير إلى المسجد الذي نقوم بدراسته.. لأن هذا الجغرافي يشير بعد ذلك إلى بناء جامع الزيتونة على يدي عبيد الله بن الحبحاب عام ١١٤هـ (٧٣٢م). ويختلف معه ابن عذارى في تحديد تاريخ البناء، فيذكر أنه بني عام ١١٦هـ. ونص البكري أجدر بالثقة من نص ابن عذارى.

أما النويري فيذكر أن أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء المسجد الجامع بتونس، وأنه شرع في البناء عام ٢٤٨هـ (٨٦٣م). ومات الأمير بعد ذلك بسنة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء، فأتمه أخوه أبو محمد زيادة الله الذي تولى الإمارة من بعده. ولم يطل عهد زيادة الله فمات بعد سنة واحدة وسبعة أيام في ذي القعدة عام ٢٥٠هـ. ويذكر الدكتور فكري أن هذا هو السبب في أن اسمي هذين الأميرين لم يسجلا في النقوش التذكارية بهذا المسجد.

وتصمت المراجع التاريخية خلال القرون الأربعة التالية عن ذكر شيء عن هذا المسجد، ثم تعود فتروي ما طرأ على الجامع من إصلاحات .. فيذكر الزركشي أنه شرع في إصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته في عهد الواثق، وتمت أعمال الإصلاح في ١٥ من شعبان عام ٦٧٦ للهجرة. ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى بن زكريا أمر بصنع أبواب خشبية، ووضع جوائز خشبية في عرض المسجد. وإذا كانت هذه الإشارات الموجزة لا تكفي لدراسة تاريخ الجامع، فإن الجامع ذاته أمدنا بنصوص تاريخية مهمة غاية الأهمية. فهو يحمل تاريخه مسجلاً واضحاً لا غموض فيه.

يقول الدكتور فكري : " فقد أنشىء وجدد وأصلح، وأضيف إليه، وزخرف فيه في عصور مختلفة لو تركت لعلماء الآثار لتضاربت فيها

أقوالهم، ولكن ذلك كله مسجل في نقوش هذا الجامع .. مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلاً بقبة المحراب : " بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله الإمام المستعين أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله، وابتغاء مرضاته، على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومائتين ". ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]. صنعه فتح الله". وبفضل هذه النقوش التي نراها أيضاً في واجهة الصحن القديمة وفي قبة البهو، وعلى الباب الشرقي النافذ من صحن الجنائز، عرف تاريخ المسجد.

والمسجد مربع في غير انتظام : طول جدار المحراب فيه ٦٤متراً، والغربي ٦٥متراً، والشرقي٦٠متراً، والشمالي ٥٥ متراً، وعقود المسجد تتجه اتجاهين في آن واحد : عمودية على جدار القبلة، وموازية لهذا الجدار. ويحتوي بيت الصلاة على سبعة بلاطات عرضية موازية لجدار القبلة، طول كل منها ٥٦متراً تمتد على خمسة عشر بلاطاً طولياً، متوسط طول كل بلاط منها ٢٦ متراً. وبلاط المحراب أكثر اتساعاً من بقية البلاطات، كما أن أسكوبه، الممتد بطول جدار القبلة، أكثر اتساعاً من بقية الأساكيب، مما يؤكد تأثر جامع الزيتونة في تخطيطه بجامع القيروان.

وعقود بيت الصلاة لا ترتكز على جدران الجامع، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران، وترتكز على أعمدة، وهي تشبه حدوة الفرس، ولا تختلف في شيء عن عقود جامع القيروان، وتقوم على حدائر بأعلاها قرم وبأدناها طنف من الحجارة. وتزدان حدائر جامع الزيتونة بزخارف نباتية محفورة في كتلة الحجر، في حين تركت عارية من الزخرفة في جامع القيروان. وتزدوج هذه الحدائر في أسكوب المحراب بجامع الزيتونة لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلاً من تشتيته وبعثرته.

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة، جلبت من آثار رومانية وبيزنطية وأعيد استعمالها في الجامع. ومع ذلك فإننا نجد بجامع الزيتونة تيجاناً إسلامية ترجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي، وتظهر في قبتي هذا المسجد ملتصقة بالدعائم، وتتفتح فيها وريقات الأكنثس على أكثر من صف.

وجدران الجامع مبنية جميعها بالحجر الجيري المصقول، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار، وسمكها ١,٢٠م، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال في جامع القيروان. وصحن الجامع مربع غير منتظم الأضلاع، تحيط به مجنبات من جهاته الأربع، وترتفع في ركنه الشمالي الغربي مئذنة أقيمت عام ١٣١٢م، بدلاً من المئذنة القديمة.

ولمسجد الزيتونة قبتان : إحداهما أمام المحراب، والثانية على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن. وقد أقيمت قبة المحراب عام ٢٥٠هـ (٨٦٤م)، على نمط قبة المحراب بجامع القيروان التي بناها زيادة الله بن الأغلب عام ٢٢١هـ ونشهد في قبة المحراب بجامع الزيتونة تطوراً للعناصر الجديدة التي ظهرت أول مرة بجامع القيروان - وهي الضلوع البارزة، والمقرنصات - كما نلاحظ فيها تفوقاً في البناء وتقدماً في الزخرفة.

وقد أوضحنا في دراستنا لقباب جامع القيروان أن قبة الزيتونة تعرض فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصصة في وضوح تام، كما أنها تبشر بظهور القباب ذات الضلوع المتقاطعة التي ظهرت بجامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان. وفيها تتضح أهمية الضلوع المتقاطعة وعدم أهمية الخوذة أو الكتلة التي تغطي هذه الضلوع، فهي حشو زائد لا يؤثر في بناء القبة، يمكن الاستغناء عنه واستبدال لوحات جصية أو زجاجية منقوشة به، كما حدث في قبة المحراب بجامع تلمسان، أو قبة المحراب بجامع تازة.

وتتكئ قبة المحراب بجامع الزيتونة على اثنتين وثلاثين عموداً، كما هو الحال في قبة المحراب بالقيروان. وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائري لعنق القبة، أما الطابق الأدنى - وهو الذي يؤلف قاعدة القبة - فمربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة، في كل مقرنص عقدان متراجعان في هيئة قواقع تتشعع فصوص جوفاتها من أركان القاعدة. وترتكز عقود المقرنصات على أعمدة. ويتوسط

أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبة عقد آخر يضم قوقعة في صورة زهرة. وهذا التقسيم الداخلي إلى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجي. فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو ستة أمتار ونصف متر، وبكل من الوجهين الشمالي والجنوبي من هذا الطابق بقية المحراب بالقيروان ثلاث طاقات. وتختلف عقود طاقات قبة الزيتونة عن عقود طاقات القيروان في أنها تتألف من أربعة صفوف مسنجة متراكبة في تراجع. أما الطابق الثاني فدائري أو شبه دائري، ويقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ.

أما قبلة البهو التي أقيمت عام ٣٨١ للهجرة، فهي بحق أروع القباب التونسية جميعاً، لتناسق تخطيطها، ودقة تفاصيلها المعمارية، وتناسق نسبها، وثراء زخارفها. وعناصر هذه القبة من الداخل كعناصر قبة المحراب، ولكنها تبدو مستقلة واضحة.

وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبة، كما سجل اسم صانعها فتح الله. وقد أخطأ " جورج مارسيه " في اسمه. ويبدو أنه نقل هذا النص التاريخي ناقصاً، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول " فتح "، وظن أنه من الفتيان الصقالبة، وأنه ساهم في بناء القبة، وقد اعترض الدكتور أحمد فكري على هذا الاعتقاد، وأثبت بصورة لا تقبل الشك وجود طائفة من كبار المهندسين والعرفاء المسلمين في بلاد تونس، منذ طليعة القرن التاسع، تخصصوا في فن بناء القباب، وبرعوا فيه وحذقوه.

ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفي جليل، يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سنج العقود أو مداميك البناء داخل قبة المحراب. وقد ظهرت هذه الزخرفة أول ما ظهرت في قبة المحراب من الداخل، ثم اتبعت في زخرفة عقود قبة البهو، وفاضت في داخلها وخارجها، وغمرت كل بنائها فغطت العقود، وامتدت إلى الجدران نفسها، والطرر التي تحيط بالعقود. وازدانت دعائم الطابق

الثاني من القبة بمربعات ملونة قائمة على رءوسها. وقد تحول اللون الرمادي خارج القبة إلى اللون الأحمر .. وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهراً زخرفياً رائعاً انفردتا به بين قباب الإسلام جميعها.

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم من عقود جامع قرطبة التي تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة المعمارية البسيطة وظهر هذا النوع من الزخرفة في بوابات الجامع على هيئة تربيعات شطرنجية. ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة إلى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ للهجرة، وتطبيقها على الحجارة الملونة .. فقد أخذ جامع قرطبة من القيروان كثيراً من عناصره، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة.

ويزدان صفاً عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفية مرئية في محور رأسي واحد .. فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة في الجص تشغل موضع التقاء منتهى كل عقدين، ابتداء من قرمة الحدارة حتى نقطة انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد. وتعلو هذه الحشوة حشوة أخرى مربعة قائمة على رأسها، تحتشد فيها زخرفة محفورة في الجص. وتشغل هذه الحشوة بنيقتي كل عقد.

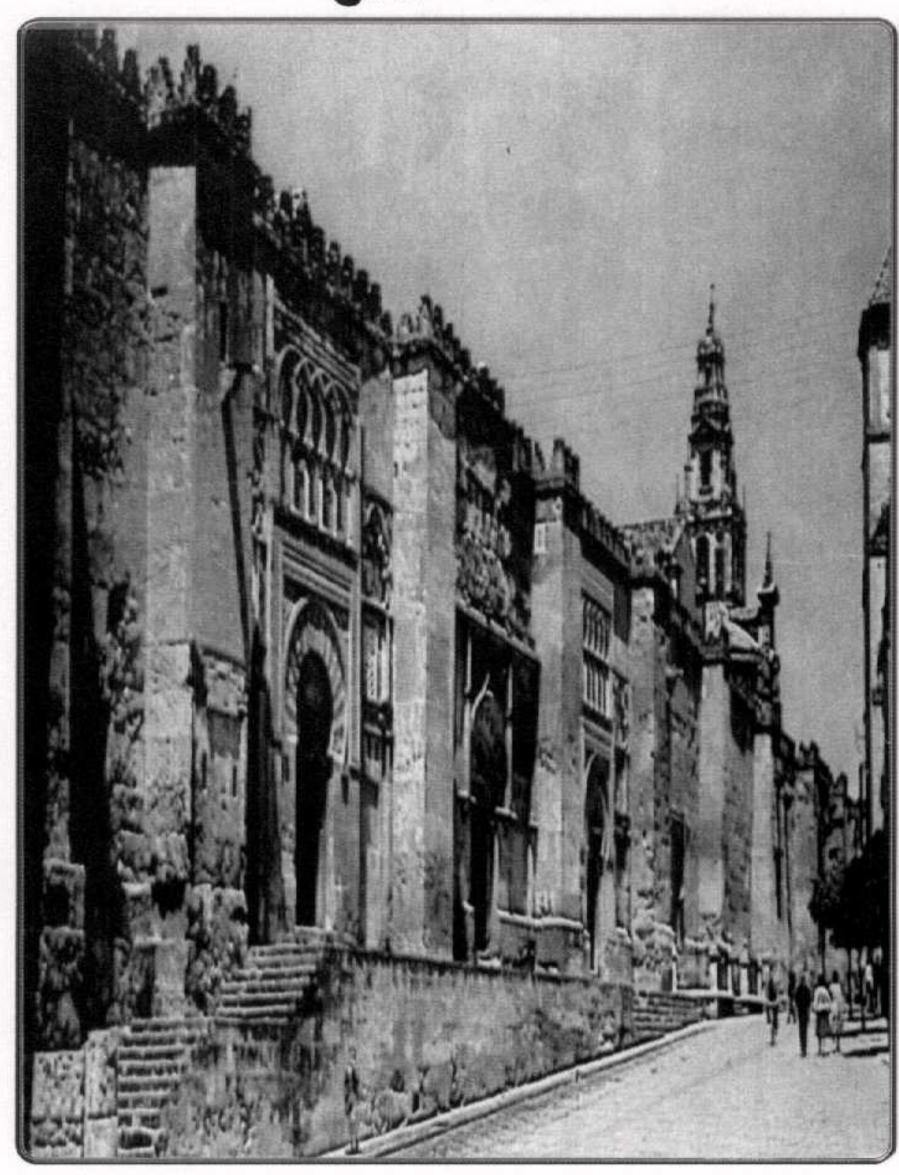
أما الطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة، أكبر من الحشوتين السابقتين، محفورة في الجدار الذي يعلو العقد، وتقع على محور الحشوتين السابقتين نفسه. وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات، وحلت محلها حشوات أخرى في القرن السابع عشر للميلاد. ومعظم ما بقي من هذه الحشوات : العليا منها، وتتكون من زخرفة تذكرنا بجوفة المحراب، فهي تتألف من إطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة، يحيط بها عقد مزدوج متجاوز، يقوم كل من منبتيه على عمودين صغيرين توأمين، والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة تتداخل فيها السيقان والتوريقات، وتمتاز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفراً غائراً يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة للتباين الكبير بين الظلمة والضوء. وقد شاهدنا

بعض أمثلة لهذا النوع في قباب جامع القيروان، ولكنها في الزيتونة أكثر رقة ومرونة.

وبجامع الزيتونة منبر يرجع إلى عام ٢٥٠ للهجرة يشبه إلى حد كبير منبر جامع القيروان، ولكنه أصغر منه حجماً. ولم يتبق من حشواته الكثيرة التي كانت تؤلف كتفيه سوى ٢٢ حشوة مستطيلة في كل من الكتفين. ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى في الزخرفة، وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية محفورة حفراً غائراً مفرغاً من مربعات ودوائر ومعينات، وزخارف بنائية من زهيرات متكررة ذات أربع ورقات تخضع للأسلوب الهندسي، فتتحول إلى زخرفة هندسية لا يذكرنا بأصلها النباتي إلا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة. ويحيط بهذه الحشوات طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تملؤها توريقات.

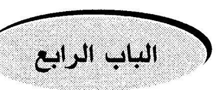
* * *

الباب الرابع



الجامع الأعظم بقرطبة أعظم جامعة إسلامية





الباب الرابع

الجامع الأعظم بقرطبة أعظم جامعة إسلامية

كانت قرطبة قاعدة الأندلس وقطبها، وأم مدائنها ومستقر خلفائها. وكانت - على حد قول الحجاري في المسهب - " قرارة أولي الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الأنام، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر، وبحر درر القرائح. ومن أفقها طلعت نجوم الأرض، وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر.. وبها أنشئت التأليفات الرائقة، وصنفت التصنيفات الفائقة ".

اشتهرت قرطبة، منذ أن افتتحها المسلمون، بتفوقها الثقافي وسموها العلمي. وكان يضرب بأهلها المثل في اقتناء الكتب، والإقبال على العلوم والأدب، حتى أصبح ذلك شرطاً لازماً من شروط التعيين والرياسة. وذاعت شهرتها في العالم أجمع في العصور الوسطى، حتى أصبحت بحق حلية الدنيا ومفخرة العالم.

وكان الفضل الأعظم في شهرتها يرجع قبل كل شيء إلى جامعها الأعظم الذي يعد من الوجهة الفنية أروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط، ومن الوجهة العلمية أعظم جامعة إسلامية تدرس فيها علوم الدين واللغة، ويفد إليها طلاب المسلمين والمسيحيين للدرس والتحصيل.

ويقول الرازي في جملة ما قاله عن قرطبة : " قرطبة أم المدائن، وسرة الأندلس، وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والإسلام

.. وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والأحكام، والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه ".

أما الحميري فيقول في كتابه الروض المعطار : " .. وفيها المسجد الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجلّ مصانع الدنيا كبر مساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، وإتقان بنية .. تهمم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف ".

ويقول الشريف الإدريسي في كتابه " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" : "..فيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً".

وكان جامع قرطبة إحدى روائع أربع، اشتهرت بها حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة   منهن قنطرة الوادي وجامعها

هاتان اثنتان والزهراء ثالثة   والعلم أعظم شيء، وهو رابعها

وقد بالغ مؤرخو العرب في المغرب والأندلس في وصف هذا المسجد، وصوروه تصويراً أقرب إلى الخيال، واختصوه بعنايتهم، وعظموه وأجلوه، وكتبوا في تاريخه ووصفه فصولاً طويلة تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الخالد الجميل.

ويرجع هذا التعظيم والإجلال لجامع قرطبة إلى أن حنش بن عبدالله الصنعاني وأبا عبدالرحمن الحبلي التابعين، قد توليا تأسيسه بأيديهما، وقوما محرابه. وقد احتفظ الأمير عبدالرحمن الأوسط بهذا المحراب النفيس عند زيارته لبيت الصلاة، فنقله من موضعه القديم، وركزه في القبلة الجديدة. كذلك احتفظ المسجد الجامع في سائر زياداته باتجاه القبلة الذي حدده حنش الصنعاني رغم انحراف هذا الاتجاه عن الاتجاه

الصحيح.

وذكر ابن سعيد المغربي في " المغرب "، حضور الخليفة الحكم المستنصر بالله عند توليه الخلافة لمشاورة العلماء " في تحريف القبلة إلى نحو الشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء .. لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة نحو الغرب. فقال له الفقيه أبو إبراهيم : يا أمير المؤمنين، إنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة، وصلحاء المسلمين وعلمائهم، منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت، متأسين بأول من نصبها من التابعين. كموسى بن نصير وحنش الصنعاني وأمثالهم - رحمهم الله تعالى - وإنما فضل من فضل بالاتباع، وهلك من هلك بالابتداع .. فأخذ الخليفة برأيه وقال : نعم ما قلت، وإنما مذهبنا الاتباع ".

* * *

مسجد قرطبة

أكبر مساجد المغرب والأندلس وأعظمها

ومن مظاهر إجلال المسلمين وتعظيمهم لهذا الجامع ما نعته به مؤرخو العرب، فقد سماه عبدالواحد المراكشي، ولسان الدين بن الخطيب، وابن بشكوال، الجامع الأعظم. وقد بلغ من إجلال أهل الأندلس، وتعظيمهم لمسجدهم بقرطبة، أن جعلوه مركزاً دينياً يحجون إليه. وفي ذلك يقول ابن المثنى، شاعر الأمير عبدالرحمن الأوسط، من قصيدة :

بنيت لله خير بيت — يخرس عن وصفه الأنام

حج إليه بكل أوب — كأنه المسجد الحرام

كأن محرابه إذا ما — حف به الركن والمقام !

وقارنه أحد الشعراء بالمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف في

قوله :

بنـي مسجـداً لله لم يـك مثلـه ولا مثله لله في الأرض مسجد

سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذي بنـاه نبـي المسلمين محمد

وكان تعظيم جامع قرطبة عند المسلمين في المشرق والمغرب، سبباً في قدومهم لزيارته، والاحتفال بالمناسبات الدينية الإسلامية في بيت صلاته، باعتباره أكبر مساجد المغرب والأندلس قاطبة وأعظمها.

وقد حفظ لنا المقري نصاً لأبي محمد إبراهيم بن صاحب الصلاة الولبني يصف فيه المسجد، عندما جاء إلى قرطبة لحضور الاحتفال بليلة القدر فيه، فيقول : " وإني شخصت إلى حضرة قرطبة - حرسها الله - منشرح الصدر لحضور ليلة القدر، والجامع - قدس الله بقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانه - قد كسي ببردة الازدهاء، وجلى في معرض البهاء .. كأن شرفاته فلول في سنان أو أشر في أسنان، وكأنما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حلل .. وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها، ونسجت على أقطاره أفياءها، فترى نهاراً قد أحدق به ليل، كما أحدق بربوة سيل، ليل دامس ونهار شامس ..

" وللذبال[١] تألق كنضنضة الحيات، أو إشارة السبابات في التحيات .. قد أترعت من السليط[٢] كئوسها، ووصلت بمحاجن الحديد رءوسها، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة، عصبت بها تفاح من الصفر[٣]، كاللقاح الصفر، بولغ في صقلها وجلالها، حتى بهرت بحسنها ولألائها، كأنها جليت باللهب وأشربت ماء الذهب .. إن سمتها طولاً ورأيت منها سبائك عسجد أو قلائد زبرجد،

(١) الذبال: هو الفتيلة التي توضع في المصباح.
(٢) السليط: هو نوع من الزيوت التي تستخدم في المصابيح.
(٣) الصفر: نوع من النحاس الأصفر.

وإن أتيتها عرضاً ورأيت أفلاكاً ولكنها غير دائرة، ونجوماً ولكنها ليست بسائرة، تتعلق تعلق القرط من الذفرى[١]، وتبسط شعاعها بسط الأديم حين يفرى ..

" والشمع قد رفعت على المنار[٢] رفع البنود، وعرضت عليها عرض الجنود، ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشقي والسعيد. وقد قوبل منها مبيض بمحمر، وعورض مخضر بمصفر..تضحك ببكائها، وتبكي بضحكها، وتهلك بحياتها، وتحيى بهلكها ".

ثم يصف ابن صاحب الصلاة رائحة البخور، وهو يتصاعد من المجامر، فيقول: "والطيب تفغم أفواحه وتتنسم أرواحه، وقتار الألنجوج والند يسترجع من الحياة ما ند. وكلما تصاعد وهو محاصر، أطال من العمر ما كان قد تقاصر، في صفوف مجامر، ككعوب مقامر..".

ثم يصف قباب المسجد من الداخل والخارج، ويصف زخارفها التي تكسو الضلوع البارزة، والمحراب وما يحيطه من نقوش وزخارف، فيقول: " وظهور القباب مؤللة[٣]، وبطونها مهللة[٤] .. كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان، قد قوس محرابها أحكم تقويس، ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق، وبقوس قزح منمق، وكأن اللازورد حول وشومه وبين رسومه نتف من قوادم الحمام، أو كسف من ظلل الغمام ..".

ثم ينتقل من وصفه للجامع إلى وصف المصلين في داخله، وهم راكعون أو وهم قائمون، فيقول: " والناس أخياف في دواعيهم، وأوزاع في أغراضهم ومراميهم بين ركع وسجد، وأيقاظ وهجد، ومزدحم على

---

(١) الذفرى: شحمة الأذن.
(٢) المنار: المئذنة.
(٣) مسننة الشكل أو هرمية.
(٤) تشبه الأحلة.

الرقاب يتخطاها، ومقتحم على الظهر يتماطاها، كأنهم برد خلال قطر، أو حروف في عرض سطر .. حتى إذا ما فرعت أسماعهم روعة التسليم تبادروا بالتكليم، وتجاذبوا الأبواب، وتساقوا بالأكواب، كأنهم حضور طال عليهم غياب، أو سفر أتيح لهم أناب ".

ثم يختتم قوله بوصف حلقات الدرس والعلم داخل المسجد، فيقول : "وصفيك مع أخوان صدق تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق .. نسمع سور التنزيل كيف تتلى، ونتطلع صور التفصيل كيف تجلى ".

هذا الوصف الرائع البليغ الذي سجله قلم أحد كتاب الأندلس في عصر الموحدين، يصور لنا المكانة التي كان يشغلها جامع قرطبة عند المسلمين، ومدى تعظمهم لبنائه، وإعجابهم بزخارفه ونقوشه، وإقبالهم على الدروس الدينية التي كانت تعقد بين بلاطاته وحول أساطينه، وهو ينطبق بصورة لا تدع مجالاً للشك على جامع قرطبة في الوقت الحالي.

كذلك وصف هذا الجامع جمهرة من مؤرخي العرب وجغرافييهم، وأصبح ذكر الجامع لا يخلو من جميع تواليفهم. ولولا أن هذا الأثر العظيم لا يزال راسخاً في مكانه حتى اليوم، تشهد عناصره بصدق أقوالهم، لكنا قد اعتبرنا هذه الأوصاف ضرباً من الخرافة، أو نوعاً من المبالغة الخيالية.

ولسنا نقصد من ذلك أن ما قيل عن جامع قرطبة كله حقيقي يجب تصديقه والأخذ به، فإن أقوال بعض المؤرخين، عند وصفهم لروائع الآثار، تشوبها في بعض الأحيان الروح الأسطورية .. فبعضهم ينسج من محض خياله قصصاً تمتزج فيها الخرافة بالحقيقة، وذلك مبالغة منهم في تعظيم الجامع. مثال ذلك ما ذكره عبدالواحد المراكشي من أنه لما دخل ألفونسو الأول، ملك أرغون، مدينة قرطبة في عام ٥٠٣هـ " دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم، فأقاموا به يومين لم تبل دوابهم، ولم ترث حتى خرجوا منه ". ويضيف المراكشي قائلاً: " وهذه الحكاية مما تواتر عندهم، واستفاض بقرطبة".

كما ذكر ابن بشكوال في رواية أن " موضع الجامع الأعظم بقرطبة كان حفـرة عظيمـة يطرح فيها أهل قرطبة قمامتهم وغيرها، فلما قدم سليمان بن داود - ﷺ - ودخل قرطبة، قال للجن : اردموا هذا الموضع وعدلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه..ففعلوا ما أمرهم به. وبني فيه بعد ذلك الجامع المذكور ".

وقال المقري : " قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس في هذه البلاد الشرقية وغيرها، أن في جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقاً على عدد أيام السنة، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق إلى أن يتم الدور ثم تعود ". وذكر أبو حامد الغرناطي الأندلسي في كتابه عجائب المخلوقات أن " بهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد ﷺ، وعلى الثاني صفة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الآخر صورة غراب نوح .. الثلاثة خلقة ربانية ".

هذا كله يؤلف موضوعاً من موضوعات القصص الشعبي الأندلسي الذي تواتر على مر العصور، فأورده المؤرخون نقلاً عن ألسنة العامة، ومع ذلك فقد أوضحوا في كثير من الأحيان أنه مما شاع بين الناس، حتى يميزوا بين ما يقولونه هم أنفسهم طبقاً لما شاهدوه في رحلاتهم، وبين ما قاله عامة الناس.

❋ ❋ ❋

مسجد قرطبة

أعظم جامعة غربية في أوربا

في العصر الوسيط

ولم يكن جامع قرطبة موضع إجلال المسلمين فحسب .. بل كان يتردد عليه عدد كبير من النصارى، إذ كان ينظر إليه باعتباره أروع الآثار المعمارية في وقت كانت أوربا تنغمس فيه في ظلمات الجهل والانحطاط.

وقد زاره كثيرون من سفراء ملوك أسبانيا المسيحية وألمانيا وفرنسا ضمن الروائع الفنية التي يزهى بها الإسلام في الأندلس، وقد نقلوا عند عودتهم كثيراً من عناصره الزخرفية في كنائسهم وقصورهم.

ثم إن جامع قرطبة كان يعد أعظم جامعة غربية في أوربا في العصر الوسيط. وقد قيل إن الراهب جيربير، الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني، أتم دراسته في جامع قرطبة. ولا نشك في أن كثيرين من نصارى الأندلس الذين كانوا يعيشون تحت ظل المسلمين، قد تعلموا فيه علوم العربية، واستعربوا - أي تثقفوا بالثقافة العربية - إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين في حياتهم، رغبة في تقلد المناصب الكبرى في الإدارة ودواوين الحكومة. وقد نبغ بعضهم في آداب اللغة العربية، وظهر منهم الشعراء والكتاب.

وكان النصارى، في المقاطعات الإسبانية الشمالية، يعظمون جامع قرطبة، ويبجلون بقعته " لكنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم، عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ". ولذلك رغب ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون، حوالي عام ١٠٧٥م، في إرسال زوجته إلى جامع قرطبة - وكانت حاملاً - لتلد فيه، لما أشار عليه القسيسون بذلك تبركاً بمكانه.

وعلى الرغم من العدد الهائل من الأبحاث التي كتبها علماء الآثار الغربيون عن هذا الأثر، مازالت هناك مشكلات قائمة يتعلق أكثرها بتاريخ الجامع وبنائه. منها مشكلة تحديد عدد بلاطات الجامع في بداية بنائه، ومشكلة تفسير وجود أسلوبين زخرفيين مختلفين في هذا المسجد الأول، ومشكلة تفسير وجود طرازين مختلفين لكوابيل في بيت الصلاة فيه، ومشكلة الدور الذي لعبه الأمير محمد في هذا المسجد، وكيف وصل المسجد إلى مساحته الحالية، ومشكلة الأسقف التي كانت تعلوه ... إلى آخره.

وهذه كلها مشكلات شائكة لم يتوصل العلماء بعد إلى حلها. وقد

قام بعض الباحثين العرب بمحاولات كثيرة في هذا السبيل أدت إلى الوصول إلى نتائج طيبة، وشاركهم فيها مؤرخو الفن الإسباني : أمثال الأستاذ لامبير، والأستاذ جاستون فييت، والأستاذ ليفي بروفنسال، والسنيور توريس بلباس، والسنيور فيلت هرناندث، والسنيور جيريرو لوفيو.

المسجد الجامع في عهد الأمير عبدالرحمن الداخل

ذكر ابن عذارى المراكشي في كتابه " البيان المغرب "، نصاً للرازي عن الفقيه محمد بن عيسى، نستنتج منه أن المسلمين، عند افتتاحهم قرطبة، امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، عن رأي عمر بن الخطاب، من مشاطرة المسيحيين في كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحاً .. إذ أن الفن الإسلامي في هذا العصر المبكر لم يكن قد نبتت بذوره بعد.

وكان المسلمون حديثي عهد بالبلاد المفتوحة، فكان من الطبيعي أن يجهلوا مصادر استخراج الرخام والحجر والخشب وغيرها من مواد البناء، فاضطروا إلى استغلال الأبنية المسيحية في إقامة مساجدهم ..والمسجد بحق هو أساس العمران الإسلامي في العصور الوسطى، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية المراكز العمرانية للمدينة الإسلامية، والقلب الذي ينبض بحياتها.

وهكذا شاطر المسلمون في قرطبة النصارى كنيستهم العظمى التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة نفسها، بالقرب من السور الجنوبي الذي يحيط بها، وفي مقابل باب القنطرة - وكانت تعرف بشنت بنجنت Saint Vincent - وابتنوا في ذلك الشطر جامعاً بسيط البناء، غير منتظم التخطيط، أسس حنش الصنعاني وأبو عبدالرحمن الحبلي التابعان قبلته بأيديهما، وتركوا النصف الآخر للنصارى يقيمون فيه شعائرهم الدينية، بعد أن هدموا كنائسهم الأخرى بقرطبة.

وقنع المسلمون الفاتحون بمسجدهم البسيط حيناً من الدهر، حتى كثر عددهم بوصول الطلائع العربية المتتابعة إلى الأندلس، ونزل قرطبة أمراء العرب من جند الشام في عصر الولاة (٧١٤ـ٧٥٥م)، وأصبح مسطح بيت الصلاة بجامع قرطبة، على ضيقه، لا يفي بعددهم الكبير، فجعلوا يعلقون فيه سقيفة إثر سقيفة ليقيموا ظللاً يستكنون تحتها. وكان ارتفاع هذه السقائف يقل تدريجاً لارتفاع مستوى سطح الأرض كلما اتجهنا نحو الوادي، مما سبب مضايقات كثيرة للمصلين، إذ كانوا يجدون صعوبة في القيام لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها، وتطامن سقوفها .. حتى كان أكثرهم لا يستطيع القيام معتدلاً لتقارب السقف من الأرض.

ولم تزل هذه حال المسجد إلى أن دخل الأمير عبدالرحمن بن معاوية المرواني أرض الأندلس، وجعل قرطبة دار إمارته .. فنظر في تجميلها بالأبنية العظيمة، والمنشآت الجليلة التي تتناسب وفخامة دولته. ونظر في أمر الجامع وذهب إلى توسعته وإتقان بنيته، وأحضر رؤساء النصارى بقرطبة، وساومهم في بيع ما بقي في حوزتهم من كنيسة " شنت بنجنت " ليدخله في المسجد، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه .. فأبوا أول الأمر بيع ما بأيديهم، وطلبوا منه - بعد الجد بهم - أن يباحوا بناء كنيستهم شنت أجلح San Asciclo التي هدمت خارج أسوار مدينة قرطبة، بالقرب من باب العطارين، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به. فتم الأمر على ذلك في عام ١٦٨هـ (٧٨٤ م)، وخرجوا له من كنيستهم، فأدخلها في بناء الجامع الأعظم.

وكان شروع عبدالرحمن الداخل في هدم الكنيسة والمسجد القديم، وبناء جامع قرطبة، عام ١٦٩هـ (٧٨٥ م). وتم بناؤه، واكتملت أسواره في عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م). وانفق عبدالرحمن في بناء هذا المسجد الجديد نحو ثمانين ألف دينار. وفي ذلك يقول البلوي الشاعر :

وأبرز في ذات الإله وجهه ثمانين ألفاً من لجين وعسجد

توزعها في مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبي محمد
ترى الذهب الناري فوق سموكه يلوح كبرق العارض المتوقد

* * *

وصف الرحالة القدامى لمسجد قرطبة

وينقسم الجامع الجديد الذي بناه الأمير الداخل - شأنه في ذلك شأن المساجد الجامعة الأولى - قسمين : قسماً مسقوفاً هو بيت الصلاة، وقسماً مكشوفاً هو الفناء أو الصحن، ويتألف بيت الصلاة من تسعة بلاطات عمودية على جدار القبلة، تمتد على اثني عشر عقداً (قوساً)، تقوم على عمد من الرخام. والبلاط الأوسط أوسع من البلاطات الأخرى وأكثر ارتفاعاً، وسقف الجامع كله كأن يتألف من لوحات خشبية مسطحة مصفوفة عرضاً (سماوات)، ومثبتة في عوارض خشبية طولية (جوائز)، وتكسو هذه اللوحات والعوارض الطولية زخارف هندسية ملونة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات، وكان يعلو هذا السقف المسطح هياكل مسنمة هرمية الشكل، تمتد على امتداد البلاطات، تاركة فيما بينها قنوات مقعرة لتجري فيها مياه الأمطار، ويحيط بالأسقف من الداخل أزار خشبي منقوش بالآيات القرآنية.

وفي ذلك يقول الشريف الإدريسي الرحالة العربي الشهير : "وسقفه كله سماوات مسمرة في جوائز سقفه .. والسماوات التي ذكرناها هي كلها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى، وهي صنع الغص وصنع الدوائر والمداهن، لا يشبه بعضها بعضاً، بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الإسفيداجي والزرقة اللازوردية والزرقون الباروني والخضرة الزنجارية والتكميل النقشي، تروق العيون، وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها، ومختلفات ألوانها وتقسيمها ".

وقد عثر المهندس الأثري " بوسكو " على بعض هذه اللوحات

الخشبية المسطحة والعوارض الطولية بين الهياكل الهرمية، وبين القبوات الجصية التي أقيمت بدل الأسقف المسطحة في القرن السابع عشر. ونجح " بوسكو " في إعادة تركيب جزء منها في سقف البلاط الأوسط بالمسجد كما كان في عهده الأول.

وعقدت بين العمد الرخامية، على أعلى رءوسها، عقود أو أقواس متجاوزة نصف دائرية تقوم مقام الأوتار الخشبية، وظيفتها ربط الأعمدة فيما بينها .. كما أقيمت فوقها عقود مثلها تحمل الجدران التي تتكىء عليها الأسقف، وتزيد في الوقت ذاته من ارتفاع السقف، وتستند هذه العقود العليا على دعائم من الحجر المنجور، تتكىء بدورها على كوابيل مؤلفة من ثلاثة أو أربعة فصوص متراكبة الواحد فوق الآخر، ويتناوب في جميع العقود العليا والسفلى اللونان الأصفر الشاحب والأحمر، نتيجة لتناوب كتل الحجارة وقوالب الآجر في سنجاتها .. وبذلك استطاع مهندس عبدالرحمن الداخل أن يخلق تأثيراً زخرفياً، ويكسب الجامع حلية بسيطة.

ويتألف كل عمود من أعمدة المسجد من تاج رخامي (رأس) وبدن وقاعدة رخاميين أيضاً .. وكل هذه الأعمدة قديمة استغلها بناة المسجد من الكنائس الخربة، وأعادوا استخدامها في المسجد الجامع، وتمثل هذه الأعمدة جميعاً غابة من النخيل، وتوحي عقودها المتتابعة بالطبيعة الحية، ويتسلل الضوء من شبكات النوافذ الخارجية، فيصل ضعيفاً باهتاً داخل مسطح بيت الصلاة، ويحدث تأثيراً قوياً في النفس، فيستشعر المرء نفسه بعيداً عن نطاق الحقيقة، ويظل مستغرقاً مهيأً للتطلع إلى ما وراء الحس في صلاة خاشعة، مؤدياً لله فرضه، مقراً له بعبوديته حياله.

وقد بحث مؤرخو الفن الأسباني في أصل فكرة ازدواج العقود بجامع عبدالرحمن الداخل، وأرجعوها إلى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين، وقارنوا نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بماردة، وهو الجسر المعروف بلوس ميلاجروس أو جسر المعجزات. وإذا

بحثنا عن وظيفة كل من هذين النوعين من العقود، وجدنا أنهما تختلفان. ولا شك أن عقود قرطبة ابتكرها مهندس عبدالرحمن، وأملت صورتها عناصر البناء ومواده التي كانت في متناول يده، وبخاصة الأعمدة القصيرة التي جمعها من الخرائب.

وعهد عبدالرحمن الداخل إلى عبدالله صعصعة بن سلام (توفي في عام ١٩٢هـ)، صاحب الصلاة بالمسجد، بغرس صحن المسجد بالأشجار.

واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذه التقاليد بعد ذلك، فطبقت في بقية مساجد الأندلس. وقنع الأمير عبدالرحمن بأحد أبراج قصر الإمارة المجاور للمسجد، من جهته الغربية، ليقوم مقام المئذنة، وترك مشكلة بناء المئذنة إلى ابنه هشام من بعده (٧٨٨ - ٧٩٦م).

ويغلب على الظن أن عبدالرحمن الداخل أرجأ بناء مئذنة الجامع إلى ما بعد زخرفته وتنميقه، ولكن الموت أدركه وهو يتأهب لبناء المئذنة، فأقامها ابنه هشام من خمس فيء أربونة. وقد عثر المهندس الأثري " فيلث هرناندث" على موضعها الذي كانت تقوم عليه، وكشف عن أساس قاعدتها المربعة وطولها ستة أمتار. وكان ارتفاع المئذنة - وفقاً لروايات المؤرخين العرب - أربعين ذراعاً، أي ما يقرب من عشرين متراً .. كذلك أقام هشام ميضأة شرقي الجامع، وبنى سقائف أو أروقة لصلاة النساء.

* * *

جامع قرطبة في عهد عبدالرحمن الأوسط ومن خلفه من الأمراء

ولما تولى عبدالرحمن بن الحكم الإمارة، بعد وفاة أبيه الحكم بن هشام (٨٢٢ - ٨٥٢م)، رفع من شأن قرطبة، وجعلها عاصمة تليق بالإمارة. وفي عهده تكاثر الناس في قرطبة، وتوافدوا إليها، وانتابوها من كل أوب، حتى ضاق عنهم بيت الصلاة بالجامع. فاضطر عبدالرحمن الأوسط إلى توسعة الجامع، وأنشأ عام ٨٣٤ م بلاطين جديدين على

جانبي بيت الصلاة، أضافهما إلى البلاطات التسعة القديمة، فأصبح عدد بلاطات المسجد جميعاً أحد عشر بلاطاً، وبذلك اتسع مسطح بيت الصلاة اتساعاً قليلا، ثم مد هذين البلاطين الزائدين في فناء الجامع، ووصلهما بسقيفة تمتد بحذاء الجدار الشمالي للجامع، أعدها لصلاة النساء. ثم أضاف عبدالرحمن الأوسط إلى بيت الصلاة إضافة جديدة في عام ٨٤٨ م، فمد جميع بلاطات الجامع نحو الجنوب ما يقرب من ستة وعشرين متراً، أي أنه مد الصفوف العشرة للعقود على ثمانية عقود جوفية، ونقل المحراب القديم إلى نهاية جدار القبلة الجديد الذي وصلت إليه الزيادة. وقد استخدم عبدالرحمن في هذه الزيادة عدداً كبيراً من أمهر مهندسيه، وكان المشرف على البنيان أكبر فتيانه الحصيان نصراً ومسرورا، كما أشرف عليه قاضي قرطبة محمد بن زياد.

وسايرت زيادة عبدالرحمن الأوسط أسلوب عبدالرحمن الداخل في بنائه، ولم تشذ عنه إلا في الكوابيل التي اقتصرت هذه المرة على بروز محدب. وفتح في بيت الصلاة بابين في جانبي المسجد الشرقي والغربي، بالإضافة إلى البابين القديمين، فأصبح للجامع أربعة أبواب: اثنان منها في الجهة الغربية، واثنان في الجهة الشرقية، ولم يتبق منها سوى بابي الجدار الغربي، وهما: سان استبان (باب الوزراء)، ودي لوس ديانيس (باب الأمير). أما البابان الآخران فقد هدمهما المنصور بن أبي عامر في زيادته التي أضافها شرقي بيت الصلاة.

ثم مات الأمير عبدالرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد، وخلفه ابنه محمد، فأمر عام ٢٤١هـ بإتقان طرز الجامع وتنسيق نقوشه. ثم أقام عام ٢٥٠هـ مقصورة خشبية حول المحراب، وجعل لها ثلاثة أبواب.. فلما كمل ما أمر به في الجامع، دخله وصلى فيه ركعات خشع فيها، فقال في ذلك موسى بن سعيد:

لعمري لقد أبدى الإمام التواضعا ... فأصبح للدنيا وللدين جامعا

بنى مسجداً لم يبن في الأرض مثله ... وصلى به شكراً لذي العرش راكعا

فطوبى لمن كان الأمير محمد له، إذ دعا فيه إلى الله شافعا

ومازالت تزين عقد باب سان استبان كتابة كوفية تسجل أعمال الأمير محمد في الجامع نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم . . . أمر الأمير، أكرمه الله، محمد بن عبدالرحمن ببنيان ما حكم به من هذا المسجد وإتقانه، رجاء ثواب الله عليه وذخره به، فتم ذلك في سنة إحدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه. مسرور ونصر فتياه".

ثم زاد الأمير المنذر بن محمد البيت المعروف ببيت المال، فأقامه في صحن الجامع على غرار بيوت المال في مساجد دمشق وحماة وحمص وعمرو بن العاص بالفسطاط، وأمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف. ثم زاد أخوه الأمير عبدالله بن محمد ساباطا (ممراً علوياً) معقوداً على حنايا، أوصل به ما بين القصر والجامع من جهة الغرب، ثم أمر بستارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح إلى المقصورة باباً كان يخرج منه إلى الصلاة. وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بني أمية بالأندلس، وتابعه في ذلك من خلفه منهم.

* * *

المسجد الجامع في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر

كانت المئذنة التي أقامها الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل قد تصدعت، كما كان بيت الصلاة قد ازداد اتساعاً منذ زيادة عبدالرحمن الأوسط، وأصبح الصحن بالنسبة لبيت الصلاة ضيقاً جداً لا يتناسق مع تخطيط الجامع. وكان في مقدرة الخليفة عبدالرحمن الناصر أن يقوم بإصلاح ما تصدع من المئذنة، ويعدل بناءها - كما فعل في واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن - غير أنه رأى ضآلتها بالنسبة لمسجد سقفه فسيح .. ثم أنه كان قد أعلن في عام ٣١٩ للهجرة أحقيته للخلافة، وشرع في تنفيذ برنامج حافل لتجميل عاصمة خلافته بالأبنية العظيمة والقصور السامقة، والمنشآت الجليلة التي تليق بجلال الخلافة وبهائها، وكان

يقول :

هــم الــمــلــوك إذا أرادوا ذكــرهــا مــن بــعــدهــم فــبــألــسـن الــبــنــيــان

أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم مــلــك مــحــاه حــوادث الأزمــان

إن الــبــنــاء إذا تــعــاظــم قــدره أضحى يدل على عظيم الشأن

لذلك كله رأى الخليفة عبدالرحمن الناصر أن يقيم مئذنة جديدة تسمو على سائر العمران بقرطبة، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار يهدي السفن الضالة في مياه البحر، وأمر عام ٣٤٠ للهجرة (٩٥٠م) ببناء مئذنة جديدة، فجمع لها عرفاء المهندسين من كل مكان، وأحضر لها الأحجار الضخمة على عجل. وشرع المهندسون في بنائها بعد أن هدموا مئذنة هشام إلى قواعدها، وهدموا السور الشمالي للمسجد، وحفروا أساسها حتى بلغ الماء، وأتموا بناءها في ثلاثة عشر شهراً ... فجاءت رائعة البناء.

وكانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد، فجعلوا لمئذنة الناصر مطلعين، وفصلوا بينهما بالبناء، فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها. وكان لكل مطلع منهما مائة وسبع درجات، وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً حتى مكان المؤذن، أي ضعف ارتفاع المئذنة الأولى، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعاً .. ثم نصب بأعلى المئذنة سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة.

وبلغ طول كل جانب من المئذنة نحو ثمانية أمتار ونصف متر، وجدرانها مبطنة جميعها بنوع من الحجر الجيري يعرف باسم الكذان اللكي، ومنقوشة - من أسفلها إلى أعلاها - بنقوش متنوعة وزخارف ملونة.

وكانت الأوجه الأربعة للصومعة تزدان بثلاثة صفوف من النوافذ المزدوجة، تحيط بها عقود تشبه حدوة الفرس، قائمة على عمد من الرخام - وكانت هذه الجدران تنتهي من أعلى بإفريز من عقود صماء

قائمة على عمد صغيرة، ويعلو الإفريز شرفات مسننة تشبه شرفات الجامع نفسه. وقد اتخذت مئذنة الناصر نموذجاً للمآذن الأندلسية، مثل مئذنة جامع أشبيلية، ومئذنة جامع الكتبية، ومئذنة جامع رباط.

ولقد أصيبت هذه المئذنة عام ١٥٨٩م بأضرار جسيمة إثر زلزال عنيف سبب تصدعاً في جزئها الأعلى المعروف ببيت المؤذن، وأوشكت المئذنة على الانهيار، فقام المهندس القرطبي " هرنال رويث "، فيما بين عامي ١٥٩٣ -١٦٥٣م، بملء الفراغ الداخلي بالبناء، ثم أحاط الجدران الخارجية للمئذنة بغلاف من الحجارة لتقوي القاعدة على حمل الجسم العلوي الذي توجها به. وقد نجح مهندس الجامع " السنيور فيلث هرناندث " في الكشف عن بقايا جدران مئذنة عبدالرحمن الناصر حتى ارتفاع ما يقرب من ٢٢متراً، كما اكتشف من الدعامتين المركزتين ما يبلغ ارتفاعه نحو ٢٦ متراً، وعثر بفضل أبحاثه على بعض النوافذ التي كانت تطل على فناء المسجد بعقودها المتجاوزة وسنجاتها الملونة.

ولم تقف أعمال عبدالرحمن الناصر عند هذا الحد، فقد قام بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن، وكانت قد تصدعت بسبب الدفع المستمر للعقود الداخلية .. ثم أصلح باب سان استبان، وأقام عليه ظلة تستند على كوابيل على نمط كوابيل واجهة بيت الصلاة.

وقد سجل عبدالرحمن الناصر أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل إلى البلاط الأوسط نقرأ فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم ... أمر عبدالله عبدالرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله - أطال الله بقاه - ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه، تعظيماً لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه .. ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر وجزيل الذخر، مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر. فتم ذلك بعون الله في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلثمائة، على يدي مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبدالله بن بدر .. عمل سعيد بن أيوب ".

* * *

زيادة الخليفة الحكم المستنصر

افتتح الخليفة الحكم المستنصر خلافته بالنظر في زيادة المسجد الجامع بقرطبة. . إذ تضاعف عدد سكان قرطبة في ذلك الوقت، وضاقت المدينة بمن وفد إليها من بربر العدوة من قبيلة زناتة الذين حالفوا الأمويين في الأندلس ضد الفاطميين، ولم يعد المسجد الجامع يتسع لجموعهم الغفيرة، ونال الناس ضرر كبير من جراء ازدحامهم. فاضطر الحكم إلى توسيع المسجد، وعهد إلى حاجبه جعفر بن عبدالرحمن الصقلبي، في اليوم الثاني من خلافته، بمهمة الإشراف على إحضار الأحجار من جبال قرطبة.

وخرج الحكم بنفسه لتقدير الزيادة وتفصيل بنائها، وأحضر لهذا الغرض الشيوخ والمهندسين، فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء، ورسموا أن تكون بمد بلاطات المسجد جنوباً على اثني عشر عقداً. وقال ابن سعيد في هذه الزيادة : " وبها كملت محاسن هذا الجامع، وصار في حد يقصر الوصف عنه ". واستمر بناء الزيادة أربع سنوات أنفق فيها مائتان وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون ديناراً.

وفي عام ٣٥٤ للهجرة أتم بناء قبة المحراب. وقد سجل ذلك في نقش يدور بعقد المحراب نصه : " .. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين. الحمد لله رب العالمين موفق الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين، أصلحه الله، لهذه البنية المكرمة، ومعينه على نيته الخالصة في التوسع لرعيته .. ما إليه وإليهم الرغبة فيما ابتدا من فضله فيهم، وصلى الله على محمد وسلم. أمر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم أمير المؤمنين، وفقه الله، مولاه وحاجبه جعفر بن عبدالرحمن رحمه الله، بتشبيك هذه البنية، فتم بعون الله بنظر محمد بن تمليخ وأحمد بن نصر وخالد بن هاشم، أصحاب شرطته، ومطرف بن عبدالرحمن الكاتب "... ثم أحاط

هذه القبة بقبتين جانبيتين، وأقام على مدخل زيادته بالجامع، تجاه قبة المحراب، قبة أخرى تشبه قبة باب البهو بجامع الزيتونة بتونس، وقبة جامع القيروان.

ثم شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد - وكان ملك الروم قد بعث بها إليه مع صانع يتقن صناعتها - فأجرى الصانع الفسيفساء على جدار المحراب وفي باطن القبة الكبرى، ومنه تعلم الصناع المسلمون طريقة تنزيل الفسيفساء وحذقوها وفاقوه في صنعته. وفي أعلى عقد المحراب نقش كوفي نقرأ فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم .. أمر عبدالله الحكم أمير المؤمنين، أصلحه الله، مولاه وحاجبه جعفر بن عبدالرحمن، رحمه الله، بعمل هذه الفسيفساء في البيت المكرم، فتم جميعها بعون الله سنة أربع وخمسين وثلثمائة ".

وفي عام ٣٥٥ للهجرة أمر بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب، ونصب في قبلة زيادته مقصورة من الخشب، منقوشة الظاهر والباطن، مشرفة الذروة، طولها خمسة وسبعون ذراعاً، وعرضها اثنان وعشرون ذراعاً، وارتفاعها إلى الشرفات ثمانية أذرع. وأحاط بها خمسة بلاطات من زيادته، وأطلق أطرافها على الستة الباقية، وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش.

وصنع لزيادته منبراً " ليس على معمور الأرض أتقن منه، ولا مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلي. ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صناع ". وكان عدد درجاته تسعاً، وعدد حشواته ستة وثلاثين ألف حشوة، سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفيس الأحجار.

وفي عام ٣٥٦هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التي كانت في فناء الجامع، وبنى موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي الفناء : الشرقي والغربي، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة في قناة حجرية

متقنة البناء، أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس، وصبت ماءها في أحواض من الرخام. ثم أجرى ما يزيد على حاجة المسجد إلى سقايات اتخذها على أبواب الجامع بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية. ويقول الشاعر محمد بن شخيص في وصف هذه القنوات :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف من أعذب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم إذا زالت طهارتها ري القلوب إذا حرت صواديها
قرنت فخراً بأجر أقل ما اقترنا في أمة أنت راعيها وحاميها

واختتم الحكم أعمال البناء ببناء دار للصدقة غربي الجامع، لتكون معهداً لتوزيع صدقاته، كما أقام في ساحة الجامع مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين القرآن، وفي ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك : يا خير تاليها وداعيها !

وزيادة الحكم المستنصر أعظم ما أضيف إلى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة، وقد زودت المسجد بتناسقه وتعادل أجزائه.

وقباب الجامع تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة، تؤلف نجوماً تتوسطها قبيبات مفصصة، وكسيت الفراغات بين العقود البارزة بزخارف نباتية آية في الروعة والجمال، وأجرى فيها الفسيفساء المذهبة. وقد أوحت قباب الحكم إلى الفنانين الفرنسيين ابتكار القبوات القوطية الشهيرة.

أما المحراب الجديد الذي أقامه الحكم فهو أجمل عنصر معماري في الجامع، إذ عني به المهندسون باعتباره أنبل مكان بالمسجد، فأقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامي، ونقش هذا المحراب من الداخل والخارج بالتوريقات، وزينت عضادتاه بلوحات رخامية حفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفراً غائراً.

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب باباً يؤدي إلى الساباط الجديد

الذي يصل بين قصره ومقصورته بالجامع.

* * *

الزيادة في عهد المنصور بن أبي عامر

شرع المنصور بن أبي عامر، عام ٣٧٧هـ، في زيادة المسجد حين ضاق بيت الصلاة فيه عن المصلين. ولما كان قصر الخلافة يجاور الجانب الغربي للمسجد، بدأ زيادته بشرقيه على بلاطات تمتد بطول المسجد من أوله إلى آخره، وقصد منها المبالغة في الإتقان، وإحكام البنية دون الزخرفة، وإن كانت لا تقل عن سائر الزخارف روعة وجمالاً. وكان أول ما قام به المنصور هو نزع ملكية الدور القائمة شرقي الجامع والتي أدخلها في زيادته وتعويض أصحابها عنها بالمال والعقار.

وذكر ابن بشكوال: " أنه لما عزم على زيادته هذه، جلس لأرباب الدور التي تقل أصحابها عنها، فكان يأتي بصاحب المنزل فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا، أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين، من مالهم ومن فيئهم، لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطط، واطلب ما شئت. فإذا ذكر له أقصى الثمن، أمر أن يضاعف له، وأن تشتري له بعد ذلك دار عوضاً عنها .. حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة، فقالت: لا أقبل عوضاً إلا داراً بنخلة. فقال: تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال! فاشتريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن ".

وذكر ابن بشكوال أيضاً أن المنصور كان يجبر أسرى النصارى على الاشتراك في بناء زيادته، وأن " أحسن ما شاهده الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضاً من رجالة المسلمين ".

وقال الشقندي في رسالته: " إن الزيادة التي زادها في بنائه ابن أبي عامر من تراب نقله النصارى على رءوسهم مما هدم من كنائس بلادهم ". كما أن ثريات جامع قرطبة من نواقيس النصارى التي غنمها المنصور من

غزوته لشنت ياقب عام ٣٨٧هـ.

ولقد فقد جامع قرطبة بعد زيادة المنصور تناسقه واتزانه وتعادل أجزائه، إذ أصبح المحراب متطرفاً عن وسط جدار القبلة، بعد أن كان يقع في محور البناء، كما أن المنصور هدم أبواب الجامع من جهة الشرق قبل أن يشرع في زيادته، وفتح في الجدار الشرقي بعد الزيادة أبواباً أخرى، فأصبح عدد أبواب بيت الصلاة ستة عشر باباً، على كلا الجانبين الشرقي والغربي، يضاف إليها خمسة أبواب شارعة إلى الصحن.

* * *

الجامع بصورته الحاضرة

واحتفظ المسجد الجامع بقرطبة بصورته تلك طول العصر الإسلامي، ولم يطرأ عليه أي تغيير في نظام بنائه، ولم تضف إليه أية إضافات إذا استثنينا أعمال الإصلاح التي لابد منها لكل أثر فريد. وظل كذلك حتى سقطت قرطبة في يدي فرناندو الثالث عام ١٢٣٦، فتحول هذا البناء الإسلامي الشامخ إلى كنيسة عرفت بسانتا ماريا الكبرى، وأقيم به عام ١٣٧١ - في عهد دون أنريكي الثاني ملك قشتالة - مصلى سان فرناندو بجوار القبة الكبرى التي تعلو مدخل البلاط الأوسط من زيادة الحكم. وقد كسيت جدران هذا المصلى بزخارف من الطراز المدجن محفورة في الجص، كزخارف قصر الحمراء والقصر بأشبيلية، وتعلو هذا المصلى قبة تقوم على تشابك العقود البارزة، وتختلف عن قباب المسجد في أنها مكسوة بالمقرنصات الزخرفية الدقيقة.

على أن كل ما طرأ على المسجد حتى ذلك الوقت لا يعدو إضافات طفيفة غير جوهرية لم تغير في نظامه، ولم تشوه من عمارته. ولكن منذ أواخر القرن الخامس عشر بدأ الإسبان يشوهون في بنية هذا الأثر الإسلامي المجيد بإضافات وتغييرات أساسية .. ففي عام ١٤٨٩ هدم الأسقف أنييجو مانريكي عقود البلاطات الخمسة، الممتدة طولاً من

مصلى سان فرناندو - المعروف بمصلى فيلافسيوسا - وأعمدتها حتى جدار الجامع الغربي، وأقام جدارين طوليين رغبة في عمل مجاز يغطيه سقف خشبي قائم على عقود قوطية. ثم شرع الأسقف دون ألونسو مانريكي عام ١٥٢٣ في هدم جزء كبير من زيادة عبدالرحمن الأوسط وزيادة المنصور، لإقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع شوهت البناء القديم، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد، وقد أبدى شارلكان أسفه حين شاهد هذا التشويه، وندم لموافقته على إجرائه في أثر فريد من آثار الأندلس .. بل العالم أجمع.

أشرف على بناء هذه الكاتدرائية المهندس " هرنان رويث " إلى أن مات عام ١٥٤٧، وخلفه ابنه " هرنان رويث " حتى وفاته عام ١٥٨٣، ثم تبعه "هرنان رويث" الحفيد فأتم بناءها سنة ١٥٩٩. ثم أقيمت على جدران الجامع من الداخل مصليات عديدة ذات طابع يتبع طراز عصر النهضة، مثل مصلى لوس سيمانكاس، ومصلى سان بابلو.

وفي عام ١٦٨٢ أقام الأسقف فراي ألونسو دي مدينا مصلى لاكونثبثيون، وزينه بتماثيل رائعة قام بعملها المثال الغرناطي بدور دي مينا. وفي عام ١٧٠٥ أقيم مصلى آخر يعرف بسانتا تريزا، أو بمصلى الكاردينال سالازار. وفي القرن الثامن عشر انتزعت أسقف الجامع الخشبية، بعد أن تآكلت بفعل الزمن، وأقيمت بدلاً عنها قبوات جصية في جميع بلاطات الجامع. وأجريت خلال القرن التاسع عشر عدة إصلاحات في الجامع : أولها ما قام به دون بدرو تريفيا عام ١٨٢٦، بترميمه المحراب.

ثم أعلن الجامع عام ١٨٨٢ أثراً قومياً، وعهد بالمحافظة عليه إلى مدير مدرسة العمارة بمدريد " ريكاردو فيلاسكث بوسكو " وقد قام هذا المهندس الأثري بإصلاح مصلى فيلافسيوسا، وأعاد وضع أسقف جامع قرطبة في البلاط الأوسط، واستبدل ببلاط الجامع القديم المصنوع من الآجر بلاطاً من الرخام، ورمم واجهات الجامع من الخارج بأبوابها عام

١٩٠٩. ومازالت الحكومة الأسبانية تولي هذا المسجد الجامع نصيباً كبيراً من عنايتها، حيث اعتبر المسجد أعظم أثر إسلامي في أوروبا.

وقبل أن نختم حديثنا عن جامع قرطبة ينبغي أن نشير إلى تأثيراته في العمارة المسيحية على السواء. فقد تغلغلت هذه التأثيرات في أسبانيا المسيحية، ومنها انتقلت إلى مقاطعات فرنسا الجنوبية حيث تتجلى بحق في كنائس جاسكونيا ولانجدوك وأكيتانيا وأنجو ونورماندي.

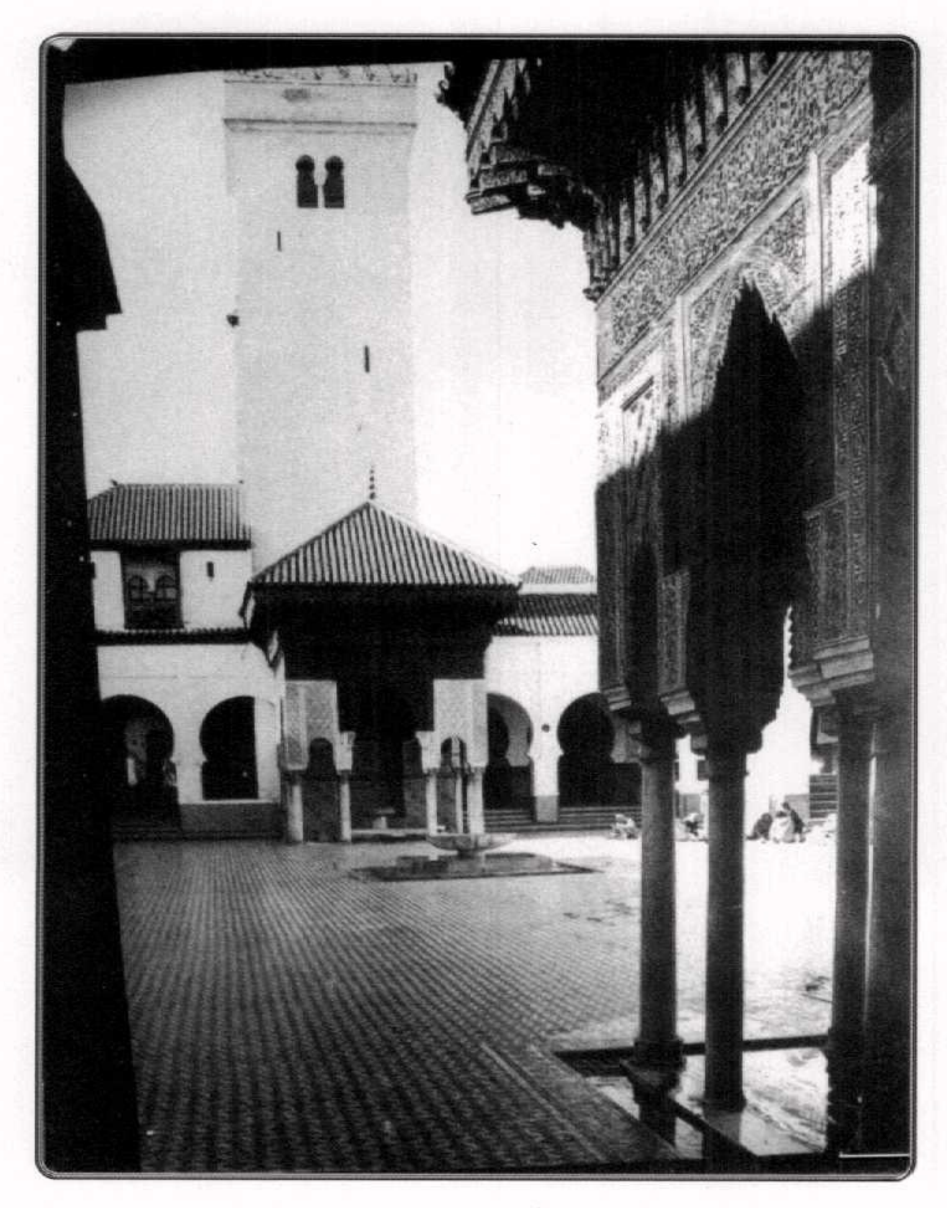
ومن القباب القرطبية الممثلة في الجامع استلهم المهندسون الفرنسيون الحل المعماري الفريد الذي تكشف عنه القبوات القوطية المصلبة، كذلك أعجب الفرنسيون بزخارف الجامع وحلياته، فنقلوا بعضها إلى كنائسهم مثل الكوابيل التي تتجلى في كنيسة نوتردام دي بور دي كليرمو، وبرج قرون في بيريجيه.

وانتشر العقد الثلاث الفصوص في بوي، حيث ظهر في كاتدرائية نوتردام دي بور، وفي مقصورة سان ميشيل داجويل، وفي واجهة كنائس موناستبيه وريوتار وبولنيا، وفي كنائس فيلاي وكاتدرائية فالنس. كذلك انتشر العقد المتعدد الفصوص، وعقد حدوة الفرس، في دير كلوني ببورجني، وفي برج كنيسة لاشاريتيه سير نوار.

ويكفي أن نشير إلى بحث الدكتور السيد عبدالعزيز سالم عن التأثيرات المعمارية الأندلسية في العمارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا الذي نشر في المجلد الثاني من دائرة معارف الشعب (ص١٧٢ـ١٧٦)، وبحثه أيضاً عن هذا الموضوع في مجلة "المجلة" العدد ١٤ (ص - ٨٨) تحت عنوان أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا.

أما تأثيرات جامع قرطبة في العمارة الإسلامية، فتتجلى في مساجد المغرب وتونس والجزائر، وفي مساجد مصر في عصر المماليك. ولقد اشتدت هذه التأثيرات بعد تقدم حركة الاسترداد المسيحية في قلب الأندلس، وهجرة كثيرين من أهلها إلى سائر البلاد الإسلامية في المغرب والمشرق.

الباب الخامس



جامعة القرويين أقدم جامعة في العالم





الباب الخامس

جامعة القرويين أقدم جامعة في العالم

أتعرف أين تقوم أقدم جامعة في العالم، إنها ليست في أثينا ولا في روما ولا في باريس. إنها ليست جامعة أكسفورد ولا جامعة كمبريدج وجامعة لندن. بل إنها ليست في أوروبا كلها كما كان يظن .. إنما هي في أفريقيا .. وفي بلاد المغرب بالذات .. في مدينة فاس. إنها جامعة القرويين.

وإليك قصة هذه الجامعة الإسلامية .. تلك الجامعة التي تخرج فيها عدد من الأوربيين ونقلوا بعض علومها إلى أوروبا.

عرفت فاس منذ كانت مكاناً للاجئين حيث اتخذوا منها وطناً ثانياً فمنهم آلاف قدموا من الأندلس واستقروا في الجانب الشرقي من المدينة الذي عرف فيما بعد باسم عدوة الأندلس ومنهم آلاف قدموا من القيروان في تونس واستقروا في الجانب الغربي الذي عرف باسم عدوة القروانيين ويعرفها أهل فاس فيدعونها عدوة القرويين اختصارًا لبعض الحروف.

* * *

بناء مسجد القرويين

وكان في أعداد المهاجرين التونسيين الذين التجأوا إلى فاس منذ بداية القرن الثالث الهجري محمد بن عبدالله الفهري القيرواني الذي توفي بعد وصوله تاركاً ثروة طائلة لكريمتيه فاطمة ومريم اللتين تطوعتا لبناء مسجد في هـذه المنطقة بدأ العمل في بنائه في غرة رمضان سنة ٢٤٥هـ - ٣٠ نوفمبر ٨٥٩م أي منذ ألف ومائة وخمسة وأربعون سنة كاملة وهو

المسجد الذي عرف فيما بعد باسم جامعة القرويين.

لكن جامعة القرويين هذه أصبحت - بعد نحو قرن من تأسيسها - تشكو الضيق وتتوق إلى الإصلاح وقد قام بهذا الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي وكان قد ثار ضد حامد بن حمدان سنة ٣٢٢هـ ٩٣٤م داعياً لبني مروان بالأندلس قد كتب بذلك إلى الخليفة عبدالرحمن الثالث العاهل الأموي وكان شغوفاً بالمنشآت فأسهم في المشروع بمال كثير.

وفي أوائل القرن السادس الهجري وجه القاضي عبدالحق بن معيشة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن شافين طلباً بضرورة الزيادة من جديد في جامعة القرويين والقيام بإصلاحات تقتضيها الحال فسارع الأمير بشراء الأملاك المجاورة وضمها إلى مسجد القرويين وأمر بتنفيذ الإصلاح المطلوب.

جامعة القرويين أقدم جامعة

وقد ظلت جامعة القرويين معهد دراسة وعلم منذ اليوم الذي انهيت فيه أعمال البناء فيها. إذ أنها شيدت في مدينة وضع حجرها الأساسي على نية أن تكون مدينة فقه وعلوم ومن هنا نرى كثيرين من المؤرخين يميلون إلى القول بأنها أقدم كلية في العالم .. فقد ذكر الأستاذ م. دلفان في كتابه " فاس وجامعتها " والذي طبع سنة ١٨٨٩ :

" إن جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة في الدنيا " كما ذكر الأستاذ بندلي طليبا من أكاديمية موسكو " أن أقدم مدرسة كلية في العالم ليست في أوروبا كما كان يظن بل في أفريقيا في مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب ".

وهي في هذا تختلف عن الجامع الأزهر فهو لم ينشأ في الأصل ليكون جامعة أو معهداً بل مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية في حاضرتها الجديدة ومنبراً لدعوتها الدينية.

ونستطيع أن نستخلص من الآثار التاريخية الموجودة إلى اليوم صورة

لامعة لحياة هذه الجامعة التي ظلت حارساً يقظاً يسهر على التراث العربي والإسلامي عبر القرون.

عهود القضاة .. لا عهود الملوك

ويمكن تقسيم حياة جامعة القرويين إلى مراحل الأولى منها هي التي تقع بين سنتي ٢٤٥ و ٦٦٧ هجرية. وهذه لم ينقل لنا التاريخ عنها معلومات دقيقة وإن كان يفيدنا بأن علوم التفسير والحديث والاعتقاد وأصول الفقه وبعض العلوم الرياضية كانت تدرس فيها وأن قاضي المدينة كان هو مدير الجامعة الذي له الحق في تعيين علمائها وتنصيب أئمتها ومراقبة نشاطهم.

وأنه لكثرة ما اعتزت جامعة القرويين برجالها الروحيين ما كان هؤلاء الرجال ينعمون به من حرية وتقدير لم تكن تؤرخ أحداثها بعهود الملوك والأمراء ولكن بعهد القاضي فلان !!

ولم تقتصر فائدة جامعة القرويين في هذه المرحلة على المغاربة فقط فقد انتفع بها عدد من الأوربيين زاولوا دروسهم بين ظهرانيها.

ولقد كان في جملة من ضمنتهم جوانبها سيلفيستر الثاني الذي كان أول من أدخل الأعداد العربية إلى أوروبا بعد أن أتقنها جيداً في هذه الكلية والذي تأثر كذلك بالنظريات الفقهية الإسلامية فحمل إلى بلاده .. على ما يروى .. فكرة تطوير القانون الروماني.

أقدم جامعة

يمتاز الفتح العربي بأنه جاء إلى المغرب بكتاب الله ومنذ ذلك الحين والمكان الطبيعي لاجتماع المؤمنين هو المسجد حيث يقومون بدراسة القرآن وحفظ آياته البينات ومن الطبيعي أن يصبح المسجد بمثابة مدرسة ويعتبر مسجد الكعبة في مكة المكرمة أول مدرسة من هذا النوع في الشرق العربي وأول مدرسة بنيت في شمال أفريقيا كانت في القيروان وقامت عدة مساجد على غرار المسجد الأخير من كافة الوجوه نذكر منها

على سبيل المثال لا الحصر جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في المغرب والجامع الأزهر في مصر ولكن هذه المساجد لم تكن دائماً معاهد تعليمية إلى جانب كونها أماكن للعبادة فبينما كان أحدها يزدهر كان الآخر يضمحل والعكس.

ولكن جامع فاس شذ عن هذه القاعدة ذلك لأن فاس شيدت لا لتكون مركزاً تجارياً أو صناعياً ولكن لتكون مركزاً دينياً وتعليمياً وفضلاً عن ذلك فإن الرؤساء الدينيين والفقهاء أشرفوا على نمو المدينة وتقدمها منذ البداية ولم يتوقف التعليم الديني يوماً واحداً حتى الفترات التي كانت تجري فيها إصلاحات وحتى حين أصبحت مراكش عاصمة البلاد في عهد المرابطين وكان المتعلمون في مراكش وفي أي مكان من المغرب يرسلون أولادهم إلى القرويين ليطلبوا العلم فيه.

وإن كانت جامعة بولونيا الإيطالية قد أنشئت في سنة ١١١٩ ميلادية وجامعة السوربون قد أسست في سنة ١٢٥٧ فإن جامعة القرويين لتعتبر من أقدم جامعات العالم ولربما استطعنا أن نقول إن أقدم جامعة في العالم لا توجد في أوروبا بل في أفريقيا.

* * *

سار جامع القرويين منذ إنشائه على مذهب الإمام مالك الذي جاء إلى المغرب مع الأدارسة بتأييد قرطبة والقيروان وهكذا أصبح مذهب مالك وآراؤه والكتب التي ألفها تلاميذه الموضوع الرئيسي للدراسات التي تلقى في هذا الجامع مضافاً إليها بعض العلوم الأخرى.

وفي عهد دولة المرابطين ألغى مذهب الغزالي وأحرق كتابه " إحياء علوم الدين " وفي أوائل القرن السادس الهجري ولكن لما جاءت دولة الموحدين تقرر تدريس الحديث للبخاري ومسلم ومالك وأبي داود وغيرهم وكان هذا البرنامج الجديد بمثابة دعوة إلى الاجتهاد وهكذا ظهر اسم الغزالي من جديد واهتم الموحدون كذلك بالعلوم والفنون المختلفة

واستعانوا بالأساتذة الذين استقدموهم من الأندلس.

وفي بداية القرن السادس للهجرة كانت ميزانية القرويين نحو ثمانية آلاف دينار وتعطينا هذه الميزانية الضخمة فكرة واضحة عن الاهتمام الزائد بالقرويين وبرجاله في ذلك العهد هؤلاء الرجال الذين استطاعوا بفضل هذه العناية أن يؤدوا رسالتهم العلمية على أكمل وجه.

وكان قاضي فاس يقوم في العادة بالإشراف على هذه الجامعة فهو الذي كان يعين الأساتذة والأئمة ويشرف على أعمال البناء والإصلاح بالإضافة إلى وضعه للميزانية ويعتبر القاضي ابن معيشة والقاضي عبدالله بن داود أشهر من أشرف على هذه الجامعة.

إن الطلبة المغربيين اليوم يذهبون إلى أوروبا ليستكملوا دراساتهم فيها ولكن في العصور الوسطى كانت الأمور تجري على عكس ذلك فقد ذهب عدد كبير من الأوربيين إلى قرطبة أو غيرها من مدن إسبانيا المسلمة ولم يكن من الصعب في ذلك الزمن أن يتوجه المرء من قرطبة إلى المغرب أو العكس ولما كان هذان البلدان ينعمان بثقافة واحدة فقد أم القرويين عدد كبير من الطلبة الأجانب نذكر منهم جربير دورباك الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني كما يقول لنا كريسوفيتش.

واختفى عدد كبير من أساتذة هذه الجامعة خوفاً من الاضطهاد كما توفي عدد من العلماء ففقدت الجامعة بوفاتهم عمداً قوية راسخة في الفقه والأداب والعلوم أمثال ابن رشد وابن الياسمين، وفي الوقت نفسه استقر بعض رجال هذه الجامعة في شرق المغرب وشماله وجنوبه حيث قاموا بتعليم مبادىء الإسلام واللغة العربية.

وكان بعض المساجد الأخرى في فاس معتبراً فروعاً محلية لجامع القرويين وكانت هذه المساجد منبثة في كل شارع وركن من المدينة وتتبع إلى حد ما جامع القرويين المركزي الكبير غير أنه كان لكل من هذه المساجد كراسي علمية ومكتبات زاخرة بالكتب ويجدر بنا أن نذكر من بين هذه المساجد مسجد الحي الأندلسي ومسجد المهدي وغيرها من

المساجد المنبثة في أنحاء المدينة والتي كانت تسير على منهج جامع القرويين بفاس ولو أنها لم تكن في شهرته.

لم يستطع الموحدون الصمود أما ضغط المرينيين الذين استولوا على فاس حيث أقاموا المدينة البيضاء وشيدوا قصورهم ولما كان المرينيون يتبعون مذهب الإمام مالك فقد أنشأوا منذ توليهم السلطة مجلساً للمدارس أتاح لهم الإشراف على التعليم وحل مشكلة إسكان الطلبة الذين كانوا يأتون زرافات ووحداناً إلى فاس وسار المرينيون في سياستهم الخارجية على المنهج نفسه الذي سار عليه أسلافهم المرابطون والموحدون للاحتفاظ بالأجزاء الباقية من الأندلس.

وإلى المرينيين يعود فضل جلب مئات الكتب من الأندلس، وعلى الرغم من الحروب القائمة في أسبانيا فقد استمروا في إنشاء المعاهد والمدارس والمساجد حتى غدت فاس مركزاً يفد إليه رجال الفكر من كل حدب وصوب.

وخلف هذا العهد آثار ثقافية هامة وعدداً من المدارس وكان أشهر هذه الآثار دون شك التاريخ الذي كتبه ابن خلدون ذلك المؤرخ الفيلسوف ورجل السياسة الذي درس المنطق والفلسفة والفقه والتاريخ فعينه أبو عنان سلطان تونس والي الكتابة وفي أواخر عهد المرينيين استولى رجال القصر على السلطة وقام نزاع بينهم في حين كانت الأندلس تحتضر ويهجرها سكانها إلى المغرب.

تعدد وتنوع الدراسات

بجامعة القرويين

وقعت بعد ذلك كارثة سنة ٨١٨هـ (١٤١٥ـ ١٤١٦م) حينما سقطت بعض المراكز المغربية الساحلية في أيدي البرتغاليين وكانت نداءات الحرب المقدسة تنبعث من المساجد ومن كل مكان واستخدمت جيوش القرويين للدفاع عن الأمة ولمحو العار سنة ٨١٨هـ وازداد عدد المتطوعين

وكان كل فرد يعتقد في نفسه أنه أولى من غيره في تولي قيادة المعركة، وفي هذه الأثناء حدثت موقعة وادي المخازن التي استشهد فيها عدد من كبار الفقهاء والعلماء وقد تم النصر في هذه المعركة وعاد الرخاء إلى البلاد ولكن بعد موت المنصور السعدي ساءت الحالة وسادت الاضطرابات في فاس وحاول حفيد المنصور عبثاً إعادة السكينة إلى البلاد، وفي خلال هذه الفترة الحالكة نهبت الكتب من خزائنها بينما أصبح العلماء موضع مساومة بين الزعماء وقُتل البعض في حين ركن البعض الآخر إلى الفرار.

وعلى الرغم من أن الحياة الفكرية الأولى في عهد القرويين الأول كانت ضعيفة لقلة المراجع والكتب فإن هذا العهد كان موضع اهتمام المؤرخين سواء الذين تلقوا العلم فيه أو هؤلاء الذين أتيحت لهم فرصة معرفة القرويين ويتحدث علي بن ميمون عن الجامعة فيقول أنه لم يشاهد في حياته مثل هذه الجامعة ولا رجال في تفقه رجالها وغزارة علمهم ويقول في موضع آخر أنه لم ير مثيلاً لها ولا لرجالها لا في تلمسان ولا في الشام أو الحجاز أو مصر.

وفي عهد المرينيين كانت الدراسة في الجامعة متعددة ومتنوعة إذ كانت هناك كراسي للعلوم الدينية والإنسانية والحساب والطب والفقه والتصوف وكان حفظ النصوص أمراً غاية في الأهمية وكان الذي لا يهتم بحفظها لا يبرز بين أترابه وهناك مثل يقول أن الذي لا يحفظ النص يعتبر لصاً.

لقد تأثرت جامعة القرويين تأثراً ملحوظاً بمدرسة المنصورية ببغداد وقد ألحق بهذه الجامعة عدة مدارس أخرى مثل مدرسة الحلفاويين وهي مدرسة جديدة في فاس. كما تبعتها كذلك مدارس الصهريج والعطارين والودادي وأبي عنان.

ولكل من هذه المدارس فصل واحد ومعلمان ومال محبوس عليها وهي مزودة بالمكتبات العامرة بالكتب مثل مكتبة أبي يوسف ومكتبه أبي

عنان ومكتبه المنصور وتتألف من هذه المكتبات مكتبة القرويين الشهيرة.

وكانت جامعة القرويين تطبق طريقة التعليم نفسها التي كانت تسير عليها المدارس في الشرق العربي خلال تلك العصور فكان الطلبة يجلسون حول الأستاذ في حلقات وإذا كان الأستاذ مشهوراً وصل عدد الحلقات التي تحيط به إلى عشرين حلقة.

وكانت الدروس تبدأ من شروق الشمس إلى الظهيرة وكانت دروس الصباح في أغلب الأحيان تختص بالدين والقضاء في حين ترك لدروس بعد الظهر الموضوعات الأخرى.

وإذا حل فصل الصيف اقتصر إلقاء الدروس على فترة المساء هرباً من الحر فتبدأ الدروس بعد صلاة المغرب وتستمر حتى منتصف الليل ولا تزيد العطلة الصيفية عن أربعين يوماً ولا تلقى الدروس أيام الخميس والجمعة وكذلك في شهر رمضان ولكن يحدث على الرغم من ذلك أن تلقى في هذه العطلات بعض الدروس في الأدب والتراجم.

وكانت الجماعة تعقد امتحاناً على غرار الامتحانات التي تعقد اليوم في بعض المدارس ولا ينال الإجازة إلا الطلبة الذين يثبتون جدارتهم وصلاحيتهم وفضلاً عن هذا الامتحان المخصص للطلبة والممتازين كانت تعقد امتحانات أخرى للطلبة العاديين.

وإلى جانب العلماء الذين كانوا يؤدون أعمالهم تحت إشراف القاضي كان هناك منصب آخر يشبه منصب القاضي ألا وهو منصب المفتي أي الفقيه الذي يعطي الفتوى ويجيب عما يلقى عليه من المسائل المتعلقة بالشريعة.

وكان عدد الأخصائيين في الجامعة كبيراً فمنهم من تخصص في الشريعة الإسلامية ومنهم من أوقف بحوثه على البلاغة في حين اختص البعض بالتصوف والبعض الآخر في قواعد اللغة وقام جانب منهم على دراسة علم الفلك وتفرغ نفر منهم للعلوم الرياضية والطبية وكان هناك

أساتذة يدرسون الأدب والعروض والعلوم الفلسفية كالمنطق وما وراء الطبيعة وإلى بعض هؤلاء الأساتذة يعود فضل اختراع الآلات والساعات المائية المختلفة الأشكال والأنواع.

وظلت جامعة القرويين تلقي دروسها على طريقتها التقليدية والأساتذة يختارون الكتب التي يفضلونها على غيرها والطلبة الذين يريدونهم.

وأول سلطان وضع لوائح جديدة لجامعة القرويين هو محمد الثالث وكان ذلك في سنة ١١٢٣هـ (١٧٨٩م) حين أصدر قانوناً يطلب فيه إلى شيخ الجامعة تحديد موضوعات الدراسة والكتب التي يجب استعمالها.

ويقول التاريخ إن السلطان محمد الثالث اتخذ هذا القرار بعد أن تشاور مع العلماء وكان بعضهم من مصر.

وتؤكد المصادر المختلفة أنه كان يوجد في فاس مائة من الأساتذة من أصحاب الكراسي موزعين على المائتين والخمسين قسماً التي تتألف منها جامعة القرويين المنتشرة في كل ركن وكل شارع في المدينة هذا إلى جانب مائة وعشرة مدارس خصص بعضها لتعليم البنات.

ومن هذه الكراسي يوجد عشرون في جامعة القرويين نفسها وقاعدة الترقية إلى هذه الكراسي تشبه إلى حد ما القواعد المتبعة في الجامعات الحديثة فإذا ما شغر كرسي رقى إليه أستاذ جديد بعد موافقة القاضي على هذه الترقية اليوم وكان لكل كرسي أستاذه وكتبه وحبوسه وكان لكل هذه المعاهد ومكتباتها الزاخرة بالمخطوطات التي يرجع إليها الطلبة في أي وقت يشاؤون.

أول مطبعة حجرية

وأثرها في انتشار المعرفة بين علماء الجامعة !!

وفي سنة ١٢٦١هـ (١٨٨٥م) أرسل السلطان عبدالرحمن بن هشام إلى شيخ القرويين وقاضي فاس ينتقد طريقة التدريس ويشير إلى عدم فائدة

الوسائل التعليمية المتبعة ويطلب إلى الأساتذة أن يصلحوا برنامج التعليم ووسائله.

ورأى السلطان محمد الرابع أن يبعث ببعض الطلبة إلى الشرق وإلى أوربا ليدرسوا في جامعتها وفي عهد هذا السلطان المستنير ظهرت أول مطبعة حجرية في فاس وكان لها أكبر الأثر في تقدم الثقافة وانتشار العلم والمعرفة بين علماء القرويين وطلبتها.

وسار مولاي الحسن على نهج والده فأرسل البعوث إلى مصر وإلى مختلف الدول الأوربية كما شجع المطبعة على الاستمرار في بذل جهودها.

ومدت الحماية الفرنسية نفوذها على المغرب كله وركزت جهودها على الخصوص في جامعة القرويين نفسها وكان الجنرال الفرنسي موانيه يعتبر فاس وجامعة القرويين حجر عثرة في سبيل بقاء الحماية واستمرارها فلا عجب أن لقب هذه المدينة الباسلة بالمدينة المجرمة وبلغ به الغيظ مبلغاً خاصة عندما أبدى مولاي يوسف رغبته في تطوير طريقة التدريس في جامعة القرويين وحاول المحتل أن يفرض إشرافه على القرويين ولأول مرة في التاريخ تحولت إدارة الجامعة عن إشراف القاضي إلى إشراف مجلس تألف بحضور مندوبين عن المحتل وكان ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٣٢هـ الموافق ١٧ من مايو سنة ١٩١٤م.

وفي سنة ١٩٣٢ صدر قانون يقسم مراحل التعليم إلى : المرحلة الأولية والمرحلة العيا.

إن تقدم القرويين لم يكن مستحيلاً فحسب بل كان أيضاً غير مرغوب فيه وما أن ارتفع أول صوت احتجاج ضد سياسة البربر في جامعة القرويين حتى عانى الطلبة من صنوف الاضطهاد ألواناً وحرم العلماء الشبان في سنة ١٩٣٢ من الترقي إلى كراسي الأستاذية في القرويين وأدرك الطلبة أن الحالة تزداد سوءًا فأضربوا في سنة ١٩٣٧. وتمكن الملك محمد الخامس في سنة ١٩٤٢ من تعيين أحد خريجي جامعة السوربون بباريس

وهو من طلبة القرويين القدماء مديراً لجامعة فاس.

وبدأ المجلس الأعلى برئاسة الملك محمد الخامس يهتم بالمعاهد الإسلامية وبالتعليم وكان من الطبيعي أن ينتظر الناس لجامعة القرويين مزيداً من التقدم والتطور ولكن الصيحة التي انبعثت من البلاد في سنة ١٩٤٤ مطالبة بالاستقلال كانت كافية لتلقي بطلبة القرويين في غياهب السجون والمعتقلات وجرت الحوادث سريعة .. وأضيف إلى جامعة القرويين في هذا العهد معهد للبنات إلا أن جميع المحاولات التي بذلت في سنة ١٩٤٧ في سبيل إصلاح الجامعة ظلت حبراً على ورق وفي سنة ١٩٥١ رأى الجنرال جوان المقيم العام الفرنسي في المغرب الفرصة مانحة لينتقم من القرويين التي كان يعتبرها الحصن المناهض للاستعمار وأعوانه.

الجامعة الجديدة

وعندما استردت المملكة المغربية سيادتها استيقظت جامعة القرويين والمغرب ليجدا أنفسهما أمام جيل من الشباب متعدد الثقافات فبينما كانت ثقافة البعض عربية إسلامية كانت ثقافة البعض الآخر أجنبية.

وإزاء هذا الوضع وجدت اللجنة الملكية أن الحل المثالي هو توحيد مناهج التعليم في كل المدارس بما في ذلك المراحل المختلفة للتعليم في المعاهد الدينية وفضلاً عن ذلك فقد سلم الملك لوزارة التربية مفاتيح قلعة كبيرة لتصبح مقراً لجامعة القرويين بدلاً من الجامعة القديمة وأنشأ بعد ذلك المجلس الأعلى للتعليم الذي قام بأعمال هامة سنة ١٩٦٠م.

وهكذا تم توحيد المرحلة الأولى للتعليم تلك المرحلة التي تعتبر أساساً لغيرها من فروع التعليم وتأتي بعد ذلك المرحلة الثانية التي تؤهل الطالب لكلية الشريعة أو لكلية الآداب أو لغيرها من الكليات التي ستضمها جامعة القرويين الجديدة هذه الجامعة التي مضى على إنشائها أكثر من أحد عشر قرناً.

تلك هي قصة جامعة القرويين التي يجدر بكل مواطن عربي أن يفخر بها لأنها ساهمت في مكافحة الجهل وحالت إلى حد بعيد دون انتشار الفوضى في هذا الجزء من الوطن العربي وحافظت على تراثها الفكري أكثر من أحد عشر قرناً ونشرته في الشرق والغرب على حد سواء.

* * *

نظـرة فنيـة تاريخيـة

وجامع القرويين أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب، وأكثرها شهرة باعتباره جامعة إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر في القاهرة. وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ في مساجد فاس كلها، إذ كان نظامه الفريد يؤلف طابعاً انتشر في كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا هذا. وقد وصل إلينا تاريخ هذا المسجد كاملاً بفضل روايات " الروض القرطاس " لابن أبي زرع، و "زهرة الآس" للجزنائي.

مر بناء جامع القرويين بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند تأسيسه عام ٢٤٥هـ (٨٥٩م)، والمرحلة الثانية عند الزيادة فيه عام ٣٤٥هـ (٩٥٦م)، أما المرحلة الثالثة فعندما زيدت مساحته في عصر المرابطين عام ٥٣٠هـ (١١٥٣م). ومن الثابت أن الزيادات التي تمت، ألحقت بالجامع القديم، أي التفت به من الشمال والجنوب والشرق والغرب.

يذكر ابن أبي زرع أن الخطبة لم تزل " بجامع الشرفاء الذي بناه إدريس بعدوة القرويين، وبجامع الأشياخ من عدوة الأندلس طول أيام الأدارسة ". فلما اتسعت مدينة فاس، ووفد إليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس، ضاق كلا الجامعين بالمصلين، واستلزم الأمر بناء مسجدين جديدين. وتطوعت سيدتان قدمتا من القيروان ببناء الجامعين من مالهما الخاص، هما : فاطمة القروية أم البنين، وأختها مريم، بنتا محمد الفهري، فبنت فاطمة جامع القرويين، وبنت مريم جامع الأندلسيين.

وكان موضع جامع القرويين أرضاً فضاء يعمل فيها أصناف الجص، فشرعت فاطمة في حفر أساسه وبنائه عام ٢٤٥هـ (٨٥٩م). وتذكر الرواية أن جميع مواد بنائه استخرجت من أرض المسجد نفسه. وفي ذلك يقول ابن أبي زرع : " فبنته بالطبنة والكذان، وحفرت في وسطه، فصنعت كهوفاً، واقتطعت الكذان، وأخرجت منها التراب والحجر والرمل الأصفر الطيب، فبنت به الجامع المذكور كله حتى تم، ولم تدخل فيه شيئاً من تراب وغيرها، وحفرت البئر التي في الصحن ".

وكان هذا المسجد الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة، والصحن. وكان بيت الصلاة يشتمل على أربعة بلاطات عرضية من الشرق إلى الغرب، يتوسطها بلاط أوسط أكثر ارتفاعاً من البلاطات العرضية الأخرى. وكان طول بيت الصلاة من الشرق إلى الغرب - وفقاً لرواية الجزنائي وابن أبي زرع - مائة وخمسين شبراً (أي ما يقرب من ثلاثين متراً)، وجعلت فاطمة محرابه في موضع الثريا الكبرى الموجودة بالمسجد في الوقت الحاضر، وأقامت صومعة (مئذنة) غير مرتفعة في موضع القبة التي تعلو العنزة الحالية.

ويذكر الأستاذ " جورج مارسيه " أن هذه المعلومات، التي زودنا بها المؤرخان السابقان، على جانب كبير من الأهمية، لأنها أتاحت لنا تحديد المكان الذي كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين في صورته الحاضرة. ويؤكد الأستاذ مارسيه، ويؤيده في ذلك الأستاذ لامبير، أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالي، وكان عرضه يشتمل على العقود الاثني عشر الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة، ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من البهو حتى جدار القبلة. أما البهو القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من العنزة، في حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد في محور المحراب، شأنها في ذلك شأن مئذنتي جامع القيروان، وجامع

قرطبة، ومئذنة العروس بجامع دمشق.

وظل المسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الأدارسة ولما تولى بنو زناتة حكم البلاد، واستقام أمرهم بالمغرب، بنوا الأسوار حول أرباض العدوتين، وزادوا في جامع القرويين زيادة كبرى حدودها ظاهرة حتى اليوم .. وذلك حتى كثر الناس بفاس، وانتابوها من كل صوب، وأصبح جامع الشرفاء القيم الذي أسسه إدريس الثاني ضيقاً، فنقلت منه الخطبة إلى جامع القرويين بعد توسعته والزيادة فيه.

وتفصيل ذلك أنه لما خضعت بلاد العدوة (إقليم طنجة وما يحيطه من بلاد، كسبتة وفاس ومكناس) الخليفة عبدالرحمن الناصر لدين الله عام ٩١٨م، بايعته مدينة فاس بين المدن التي بايعته. فولى عليها عاملاً من قبله يعرف بأبي العباس أحمد بن أبي بكر الزناني. فكتب إلى عبدالرحمن الناصر يستأذنه في إصلاح جامع القرويين وإتقانه والزيادة فيه، فأذن له في ذلك، وبعث إليه بمال كثير من أخماس غنائم الروم، وأمره أن يصرفه في بنائه. فأصلح جامع القرويين، وزاد فيه من ناحية الشرق وناحية الغرب والجوف، وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العنزة، وبنى الصومعة التي به الآن.

ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالي على النحو التالي :

مد الأمير أحمد بن أبي بكر البلاطات العرضية الأربعة مسافة خمسة عقود شرقاً وأربعة عقود غرباً، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاثة بلاطات عرضية جديدة شمالاً، فشغلت هذه البلاطات الجديدة الصحن القديم، وبطبيعة الحال أقام لبيت الصلاة هذا بعد اتساعه صحناً جديداً.

أما المئذنة فأقامها فوق منتصف الرواق المطل على الصحن من المجنبة الغربية، وقاعدة هذه المئذنة مربعة، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار، وارتفاعها أربعة أضعاف طول قاعدتها أي عشرون متراً - وفقا للنظام المتبع في بناء المآذن بالأندلس في ذلك الوقت - وجعل بابها

جهة الجنوب مثل مئذنة جامع القيروان. وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله : " كذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسي ".

ولقد شرع الأمير أحمد في بنائها وتشييدها عام ٣٤٤هـ (٩٥٥م)، وفرغ منه في ربيع الآخر عام ٣٤٥هـ. وبنيت من الحجر المنجور (المعدل المصقول) المُحكم، وترك في جدرانها ثقوب اتخذت منها الطيور أوكاراً لها، وركبت على رأسها تفاحات صغيرة مموهة بالذهب، وفي أعلاها سيف الإمام إدريس بن إدريس الذي بنى عدوة القرويين، تبركاً به.

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبه إلى حد كبير مآذن قرطبة وأشبيلية في عصر الأمير عبدالرحمن الأوسط، وإن كانت تغلب عليها البساطة. وفي داخلها درج حلزوني يدور حول دعيمة مربعة، وبجدرانها من الخارج فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام كان الغرض منها مد الدرج بالضوء، وقرب أعلاها نافذة على هيئة عقدين توأمين متجاوزين، يستندان على عمود مشترك، ويحيط بهما إطار مستطيل على النحو الذي نراه في مآذن الأندلس كلها، وفي أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات هرمية. أما سطح المئذنة فتعلوه قبة ركبت بها التفاحات المذكورة.

ولم يبق مظهر هذه المئذنة كما هو في العصر الأموي،وإنما كسيت بطبقة من الجص عام ٦٨٨هـ (١٢٨٩م)، إذ أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبدالرحمن المريني، قاضيه أبا عبدالله بن أبي الصبر، بإصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم. فشرع في تبييضها، وكسا المئذنة بالجص والجيار، وسمر المسامير الكبيرة بين أحجارها ليثبت التلبيس والبناء، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالمرآة.

ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر إلى أيام الخليفة الأموي هشام المؤيد، والحاجب المنصور ابن أبي عامر .. فبنى بالمسجد قبة هي التي تعلو العنزة الحالية، أي في الموضع الذي كانت تشغله المئذنة القديمة، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركبت فيها تماثيل وطلاسم. ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة في عهد المظفر عبدالملك بن المنصور،

"فبنى السقاية والبيت المستظلة بإزاء باب الحفاة "، وهو باب مفتوح في منتصف الجدار الشمالي للمسجد، وجلب إليها الماء من وادي حسن خارج المدينة، وأقام بالمسجد منبراً من خشب القنب والأبنوس عام ٣٧٥هـ (٩٨٥م).

* * *

وازدهرت فاس في عصر المرابطين، وكثر العمران بعدوة القرويين، حتى ازدحمت المدينة، واكتظت بسكانها، وضاق جامع القرويين بالمصلين حتى كان الناس يصلون في الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع، وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف. فاجتمع الفقهاء والأشياخ، وخاطبوا قاضي القضاة في هذا الأمر، فاستأذن القاضي أمير المسلمين علي بن يوسف في إجراء زيادة بالمسجد، فأذن له بالشروع فيها عام ٥٢٨هـ (١١٣٣م).

وابتدأ القاضي بنزع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته وهدمها، وأقام مكانها ثلاثة بلاطات عرضية أضيفت إلى البلاطات السبعة القديمة، وزود المسجد بمحراب جديد ومنبر، وأعاد بناء الباب الغربي الكبير المعروف بباب الفخارين، فسمي باب الشماعين. وكان يشرف على البناء بنفسه. وأقام على الباب قبة بداخلها نقش ذكر ابن أبي زرع نصه كالآتي : " صنعت هذا الباب والقبة وكلف بالبناء والتركيب في شهر ذي حجة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة". وبنيت الزيادة بحجر الكذان، وتأنق في بنائها غاية التأنق، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الأصفر، وأقيمت على كل منها قبة. وأقيمت على المحراب قبة آية في الروعة والجمال، زينت هي والمحراب بنقوش الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة، فبهرت الناس بحسنها ولآلائها.

وبهذه الزيادة اكتملت عمارة المسجد، واشتمل على حدوده التي نشاهدها اليوم. ويمثل محور المسجد من الداخل بلاط أوسط فسيح،

تعلوه خمس قباب من المقرنصات والضلوع البارزة، ومن الخارج يقطع صفوف الأسقف المنشورية الشكل، الموازية لجدار القبلة، جوسق منشوري الشكل عمودي على جدار القبلة، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف، وتمت هذه الزيادة عام ٥٣٨هـ (١١٤٣م). وكلف الشيخ أبو يحيى العتاد صنع المنبر وفتح باب الجنائز، ولكنه مات، فأكمله أبو مروان عبدالملك بن بيضا القيسي، وفرش الفقيه أبو عبدالله بن داود صحن الجامع، وصنع بكراً وأشرطة غليظة ركبها في قلاع من شقاق الكتان على قدر الصحن، ونصبها بأعلى الصحن، فإذا اشتدت حرارة الصيف، شدت البكرات فنصبت القلاع وظللت الصحن كله.

ولقد تخلف من عصر المرابطين منبر يعد من أجمل منابر الإسلام، صنع من الأبنوس والصندل والعاج والنارنج والعناب عام ٥٣٨هـ. ويشتمل هذا المنبر على تسع درجات كبيرة، ويزدان جانباه بتشابكات رائعة متعددة الضلوع، قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رءوس، ويشبه في ذلك منبر جامع الكتبية بمراكش، ويحدد هذه التشابكات شريط من العاج، وتزين الحشوات النجمية توريقات نخيلية معروقة ومحزمة وفقاً للأسلوب الأندلسي. أما ظهر المنبر وعقده الأمامي فمرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الهادئة. ومازال هذا المنبر محفوظاً إلى يومنا هذا بجامع القرويين.

ولما دخل الموحدون مدينة فاس في ١٥ من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م)، خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هذا الإسراف في النقش والزخرفة والتذهيب بالمحراب وقبته "فأتى الحمامون الجامع تلك الليلة، فنصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغيد، ثم لبسوا عليه بالجص، وغسل عليه بالبياض ودلك ". فاختفت هذه النقوش، وأصبحت بياضاً.

وفي عام ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) أقيم بوسط الصحن حوض من الرخام الأبيض الناصع، بداخله خصة من النحاس الأحمر المموه بالذهب،

صنعها أبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة، وكان مهندساً بارعاً عارفاً بأحوال البناء، حاذقاً لأصوله. ولما شرع في صنعها شق أرضية الصحن من شرقيه وغريبه بقادوس من الرصاص، وأجرى فيه الماء إلى الحوض والنافورة.

وفي عام ٦١٧هـ (١٢٢٠م) فتح القاضي أبو يعقوب يوسف بن عمران باب الوراقين بالجامع، وأقام عليه القبة العظيمة المقربصة بالجص. وفي عام ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) شرع القاضي أبو عبدالله بن أبي الصبر، الذي كسا المئذنة بكسوة الجص، في صنع عنزة الجامع، وأتمها في ٥ من شهر ربيع الأول عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م).

ثم أدخل الشرفاء السعديون في جامع القرويين عدة تحسينات إضافية.. ففي عام ٩٩٦هـ (١٥٨٧م) نصب مولاي أحمد المنصور ٩٨٦ - ١٠١٢للهجرة (١٥٧٨- ١٦٠٣م) بالجامع حوضاً من الرخام أدنى المئذنة، وأقام على منتصف رواق المجنبة الشرقية المطلة على الصحن، جوسقا بارزاً محمولاً على أعمدة تقوم عليها في كل من جهاته الثلاث عقود ثلاثة، أوسطها أكثر ارتفاعاً واتساعاً. ويعلو هذا الجوسق سقف هرمي من القراميد، يبرز فوق أفريز عريض ذي مساند خشبية، أما الجوسق الغربي فقد أقامه مولاي عبدالله بن الشيخ عام ١٠٢٢- ١٠٣٤ للهجرة (١٦١٣- ١٦٢٤م) فوق حوض الرخام الذي نصبه مولاي أحمد المنصور بأدنى المئذنة.

ولا شك أن مهندسي فاس استلهموا بهو السباع بقصر الحمراء في تقسيم صحن جامع القرويين، وتوزيع المياه إلى الحوض المركزي، وإقامة الجوسقين على الحوضين الجانبيين .. وإن كانت الأعمدة التي يستند عليها جوسقا القرويين أقل رشاقة منها في غرناطة، ثم أن أعمدة غرناطة تقوم في مجموعات من ثلاثة أعمدة، وهي لا تعدو في فاس عموداً واحداً.

* * *

بلاطات الجامع ونظامها

يتألف جامع القرويين من عشرة بلاطات موازية لجدار القبلة، أو من عشرة صفوف من العقود تمتد من شرق المسجد إلى غربه، كل صف منها يتكىء على واحد وعشرين عقداً، ويقطع هذه البلاطات العرضية بلاط أوسط يتجه عمودياً على القبلة، تزدان جدرانه الجانبية بزخرفة نباتية في عقود متصلة تشبه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة، والمسجد الجامع بتلمسان، على أن الظاهرة التي تسترعي الاهتمام في بلاطات هذا الجامع، أنها تتجه في محاذاة جدار القبلة على مثال بلاطات جامع الشرفاء وجامع الأندلسيين الأول بفاس. ويعد هذا الاتجاه شذوذاً بالنسبة لمساجد المغرب والأندلس.

ويبغي أن نستعرض هنا أصل هذا النظام حتى نتمكن من تفسير هذه الظاهرة بجامع القرويين. لقد أدى غرس صفوف الأعمدة في بيوت الصلاة بالمساجد إلى انقسام هذه البيوت إلى عدة بلاطات أو أروقة، على نحو المجازات في الكنائس والبازيليكيات. وكانت هذه البلاطات توزع في بيت الصلاة في طرازين مختلفين : إما عمودية على جدار القبلة، وإما في محاذاة هذا الجدار. ويمثل الطراز الأول جامع دمشق، والطراز الثاني جامع بيت المقدس (المسجد الأقصى). فكان بيت الصلاة بجامع دمشق يتألف من ثلاثة بلاطات تتجه عرضاً من الشرق إلى الغرب، يتوسطها بلاط طولي أكثر ارتفاعاً من هذه البلاطات، تفضي مباشرة إلى المحراب وتعلو منتصفه قبة، فيبدو الجامع كما لو كان منقسماً إلى بازيليكيتين، كل منهما تتألف من ثلاثة أروقة تؤدي إلى مجاز مشترك. وقد اتبع هذا النظام في كثير من مساجد الشام مثل جامع الرصافة،وجامع حران، جامع حلب، وجامع حماة.

أما الطراز الثاني من البلاطات فيمثله المسجد الأقصى ببيت المقدس الذي أسسه الوليد بن عبدالملك عام ٧٠٦م. وتتبع بلاطات هذا المسجد نظام البازيليكيات، إذ تتجه عمودية على جدار القبلة بعكس

جامع دمشق. ولم تكن لطراز الجامع الأقصى مدرسة بالمشرق - إذا استثنينا الجامع المعروف بتاري خان بمدينة دمغان، جنوب بحر قزوين (٧٥٠ - ٧٨٦م)، والمسجد الجامع بسامراء، وجامع أبي دلف بهذه الميدنة - ولكنه انتشر انتشاراً كبيراً في بلاد المغرب والأندلس، فنراه في جامع قرطبة في عهد عبدالرحمن الداخل، وجامع سيدي عقبة بالقيروان، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع سوسة في عهد الأغالبة. وانتشر هذا الطراز البازيليكي في مساجد المغرب والأندلس حتى يمكننا أن نسميه بالطراز القرطبي.

ولكن المغرب الأقصى، الذي كان خصماً سياسياً للمغرب الأدنى، ساد فيه الطراز الدمشقي للبلاطات .. فظهر أول ما ظهر في جامع الشرفاء، ثم طبق في جامع القرويين، وتولى هذا الجامع مهمة نشر الطراز الدمشقي في مساجد فاس ومراكش. ويذكرنا بناء جامع القرويين ببناء جامع دمشق، إذ تتجه فيه البلاطات بمحاذاة جدار القبلة، ويتوسطها بلاط أوسط يتجه عموديا إلى المحراب.

ولقد وقف المرابطون حيال هذين الطرازين موقفاً محايداً، فطبقوا الدمشقي منهما في زيادتهم لجامع القرويين، وطبقوا القرطبي في جامعهم بتلمسان. ثم فضل الموحدون الطابع القرطبي، وابتكروا فيه أنظمة جديدة نشاهدها في مساجدهم بتازة وتنمال والكتبية والقصبة بمراكش ومكناس وإشبيلية ورباط. إلا أن هزيمة الخليفة الموحدي محمد الناصر في موقعة العقاب (لاس نافاس دي تولوزا) في عام ١٢١٢م، سببت الانفصال السياسي بين المغرب والأندلس، وسجلت فاس انتصاراً آخر للطراز الدمشقي، فقد بني جامع الأندلسيين بأكمله وفقاً لهذا الطراز .. بل إن هذا الطراز ساد في كثير من مساجد المغرب، مثل الجامعيين الجنائزيين بمدينة شالة (أسسها أبو الحسن المريني عام ١٣٣٩م)، وبيت الصلاة بالمدرسة البوعنانية بفاس (١٣٥٠م). ومسجد بجوار الأزهر (١٣٥٧م). وساد هذا النظام في مدن فاس ومكناس وتازة، ومازال سائداً في مساجد

المغرب حتى وقتنا هذا.

قبـاب الجامـع

من أهم خصائص العمارة الإسلامية

معظم قباب جامع القرويين قباب مقرنصة، أي تقوم على مقرنصات، والمقرنصات أو المقربصات - حسب تعبير أهل المغرب - حليات معمارية تشبه خلايا النحل، استخدمت بادىء ذي بدء للتدرج من مسطح مربع إلى مسطح تقوم عليه القباب، وذلك بوضعها في الأركان الأربعة لقاعدة القبة، فتحول المربع إلى مثمن. ثم تطورت فتعددت حطاتها .. كذلك كانت تتخذ كمساند للأسطح البارزة أو لشرفات المآذن. وقد أقبل عليها المسلمون إقبالاً عظيماً، وأصبحت من أهم خصائص العمارة الإسلامية.

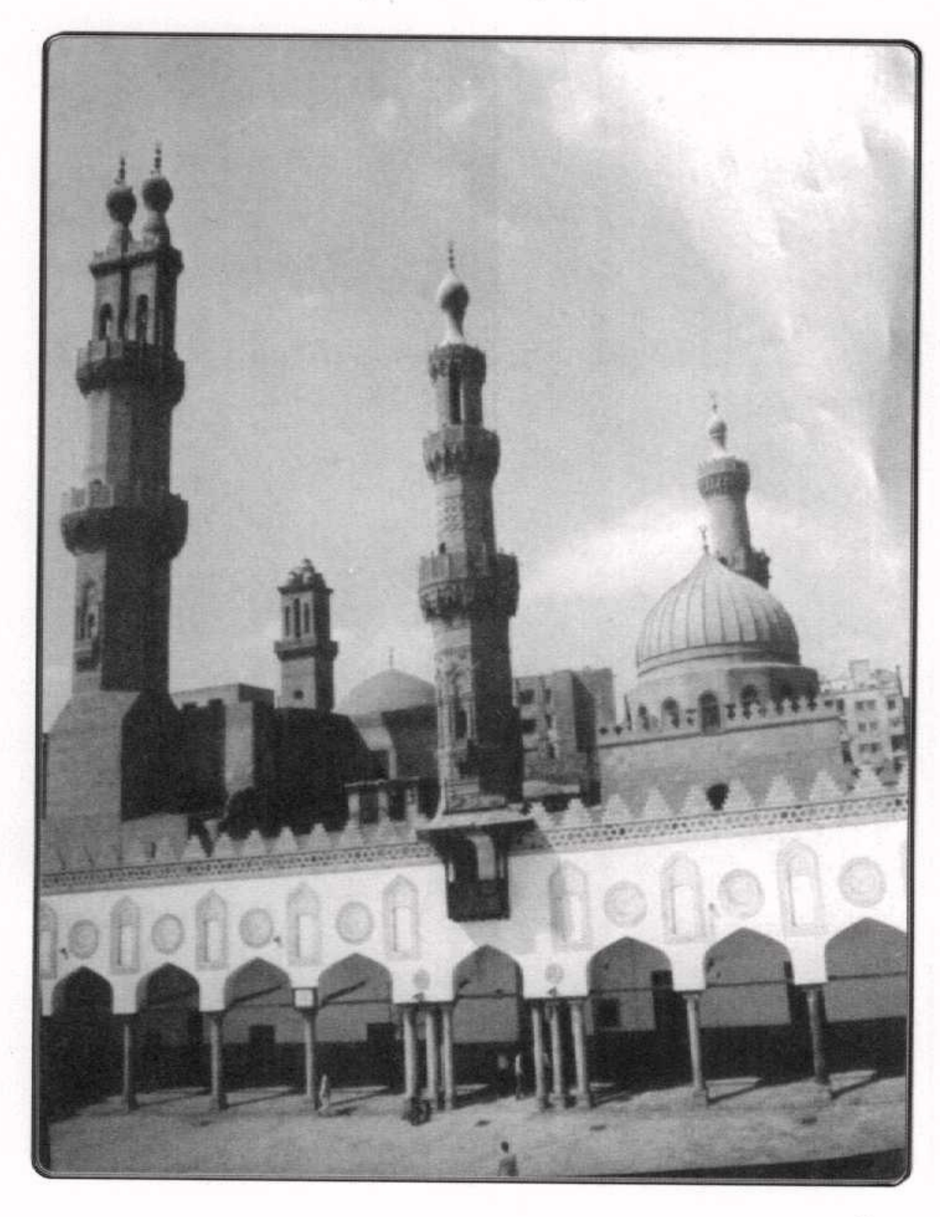
ويرى العدد الأعظم من مؤرخي الفن الإسلامي أن المقرنص ظهر أول ما ظهر في فارس (ضريح يزد عام ١٠٣٥م) لسهولة استعماله في الأبنية المتخذة من الآجر، وهو أهم مواد البناء في هذه البلاد. وانتشرت المقرنصات في العمائر السلجوقية، ووصلت إلى بلاد المغرب في عصر مبكر، ونشهدها في صورة بدائية بقصور قلعة بني حماد التي ترجع إلى أواخر القرن الحادي عشر، وذلك لتأثر هذه القصور بالفن العراقي الذي ساد فيه هذا النوع من الزخرفة المعمارية (قصر الرقة).

ثم ظهرت المقرنصات في صورة أكثر تطوراً بقبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان (١١٣٥م)، وجامع القرويين بفاس (١١٤٣م). وتفنن الموحدون في استخدامها في قبابهم، فأقاموا قباباً مقرنصة بأكملها، من أمثلتها: قبة جامع أشبيلية، وقباب جامع الكتبية بمراكش. ثم بلغت المقرنصات ذروة تطورها في عمائر بني نصر، فنراها في قاعة الأختين، وقاعة بني سراج بقصر الحمراء، كما تراها في بواطن العقود وفي زخارف التيجان وغير ذلك.

وقباب جامع القرويين تعرض نموذجاً من المقرنصات أكثر تطوراً من مقرنصات قبة جامع تلمسان، وذلك لأنها بنيت بعدها بثماني سنوات. وقبة جامع الجنائز الملحق بجامع القرويين قبة مقرنصة رائعة، وتتميز مقرنصاتها بخطوطها الواضحة الثابتة، تصلها فيما بينها ضلوع بارزة على هيئة مثلثات أو أقواس. وترصع هذه الشبكة من المقرنصات قبيبات صغيرة مفصصة، في حين تزين المثلثات زخرفة من أوراق الأكنش محفورة في الجص.

❊ ❊ ❊

الباب السادس



الأزهر الشريف منارة الثقافة الإسلامية





الباب السادس

الأزهر الشريف منارة الثقافة الإسلامية

يعد الأزهر مؤسسة من أولى وأبرز المؤسسات الدينية الإسلامية التي كان لها ولعلمائها دور حضاري رائد في التاريخ العربي الإسلامي لم يقتصر على مجرد كونه مدرسة للتعليم الإسلامي يأتي إليها الدارسون من شتى البلاد الإسلامية وغير الإسلامية بل امتد من التعليم إلى الدعوة، كما تحول دوره من مجرد تأمل المشكلات ورؤية الأحداث المحيطة إلى موقف تجاه تلك المشكلات، والمشاركة في صنع الأحداث بما يؤدي إلى حماية الأصول الإسلامية ويحقق في النهاية الدفاع عن الإسلام.

كان عمل الأزهر منذ نشأته هو تبليغ الرسالة الإسلامية، وتبليغ الرسالة الإسلامية هو أرفع منزلة، وأشرف وظيفة لأنها رسالة الأنبياء.

فكان عرينها ودرعها وقد انتشر أبناؤه في ربوع الأمة الإسلامية كالنجوم : روادا يحملون العلم إلى كل صقع بعيد، فوسع الله بهم رقعة الثقافة الإسلامية وأنار بجهودهم آفاقاً أضاءوها بسنايا الحنيفية السمحاء.

التقى المسلمون جميعاً في الأزهر الشريف لقاء الأسرة الكبيرة في جدهم الأكبر.

وقد عرف التاريخ أن رجال الأزهر وقد حملوا هذه الأمانة : رسالة الإسلام طوال أكثر من ألف عام، هم سدنة قلعة، وحماة عرين، وجند حصن، تنبعث منهم الصيحة الحقيقية المؤمنة التي تظهر الإسلام على حقيقته وتعرضه عرضاً ذاتياً من مبادئه وجوهره الأصيل. ولا يستطيع غيرهم أن يحمل مثلهم أعباء هذا الشرف لأن هذا الغير لم يجرب مثل

هذه التجربة الرائدة ولم يمارس مثل هذه الخبرة الطويلة.

ومن الصعب عليه أن يبدأ التجربة من جديد لأن آمال الأمم وسجلات التاريخ ومجالات العمل الإسلامية قد دربت الأجيال على ثقة غير محدودة بأزهرهم الشريف، ولقنتهم حباً عارماً وتقديراً رفيعاً لكفاحه، ووطنت نفسها وعلمت قلبها أن يسمع له وأن يستجيب لفتواه وأن يهرع لندائه.

وكم مرة لجأوا إلى ساحته، ذلك لأن الأزهر وجد ليكون للإسلام حصناً، حامياً ومنافحاً معرفاً ومبلغاً.

ومن أبرز الظواهر في تبليغ الأزهر رسالة الإسلام أنه لم يتدخل في شرحها وعرضها أو في الدفاع عنها والذود عن حياضها ..

لم يتدخل بالهوى الشخصي ولا بالعاطفة الخاصة بل نقل الدعوة إلى الناس كافة كما تحملها تركة من سيدنا رسول الله ﷺ فوعاها وأداها كما حفظها صافية نقية واضحة جلية.

فحفظ الأزهر بذلك رسالته : (الإسلام) وحقق وظيفته، فبات مؤكداً عند التاريخ والأمة أن الأزهر هو : الأمين على هذا الدين، والمدافع عن ذاتيته، والسادن لكرامة شريعته، ولقد عقد الله القلوب على محبته، وعلم الشعوب التوجه إليه، وأذهب عن أهله الحزن، وبارك فيه وإن تقلبت به السنون.

فهو بحق رمز الفكر والعلم : جامعة، ومسجداً، وشيخاً، وثروة، ومجداً، وتاريخاً.

* * *

نشأته وتطوره

يرجع الفضل في تأسيس الجامع الأزهر إلى الفاطميين الذين اتسعت دولتهم حتى شملت المغرب وصقلية ومصر وسوريا وفلسطين والحجاز واليمن.

والفاطميون ينتسبون إلى علي بن أبي طالب ابن عم المصطفى ﷺ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - ويكفي الفاطميين فخراً أنهم خلفوا لمصر والعالم الإسلامي هذا التراث الخالد وهو " الجامع الأزهر ".

وترجع نشأة الدولة الفاطمية إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) حيث بدأ الخليفة الفاطمي بتوطيد سلطانه في بلاد المغرب وأسس مدينة المهدية واتخذها حاضرة لدولته سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠) م.

ولما جاء الفاطميون إلى مصر بعد فتحها رغبوا في الاستقرار والاستيطان بها لتكون مركز حكمهم إذ أنها تقع في قلب العالم العربي كما أنها علاوة على ذلك مركز ثقل وذات موقع استراتيجي ولما تمكنوا من الحكم وطاب لهم المقام قام (جوهر الصقلي) قائد الجيوش الفاطمية بتأسيس مدينة " القاهرة " بعد عام من فتح الفاطميين لمصر وكان أول أعماله إرساء حجر أساس " الجامع الأزهر " وذلك في يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ الموافق أول إبريل عام ٩٧٠م.

وصلى فيه المسلمون أول جمعة في ٧ رمضان عام ٣٦١هـ، وفرغ من بنائه في ١٧ رمضان عام ٣٦١هـ الموافق ٢٢ يونيه عام ٩٧٢م، واستغرق بناء الجامع الأزهر عامين.

وفي عام ٣٦٢هـ توجه الخليفة الفاطمي " المعز لدين الله " إلى الجامع الأزهر لصلاة العيد وكانت هذه أول صلاة رسمية يشهدها الخليفة الفاطمي في الجامع الأزهر ومكث الأزهر يستأثر بهذا الامتياز الرسمي في ظل الدولة الفاطمية قرابة ٤٠ عاماً تقام فيه صلاة الجمعة الرسمية، ويخطب فيه أيام الجمع خلال شهر رمضان والأعياد.

ويُعد الأزهر أول عمل فني معماري أقامه الفاطميون ولا يزال قائماً حتى اليوم، ويقع الأزهر في الجنوب الشرقي من قاهرة المعز لدين الله الفاطمي على مقربة من القصر الكبير الذي كان موجوداً حينذاك بين حي الديلم وحي الترك في الجنوب.

وسمي بالأزهر نسبة إلى السيدة " فاطمة الزهراء " بنت الرسول ﷺ وقيل سمي بالأزهر لأنه يزهر عليهم جميعاً ولذلك كان يضاء في ليالي الأعياد الرسمية ويقال أيضاً أن تسميته بالأزهر وجدت ارتياحاً وقبولاً عند الفاطميين أنفسهم، لأنه يقرب من اسم (الزهراء) فاطمة بنت الرسول ﷺ التي ينحدرون من نسلها، وقيل إنه سمي بذلك تفاؤلاً بما سيكون عليه من شأن عال بازدهار العلوم فيه.

الهدف من بناء الأزهر :

ولو تتبعنا مسار التاريخ لوجدنا أن بعض الفاتحين والقواد الذين دخلوا مصر، كانوا يقيمون فيها مساجد بأسمائهم تخليداً لذكراهم وعرفاناً بمآثرهم وتذكيراً بأمجادهم، مثلاً - حينما دخل " عمرو بن العاص " مصر بنى فيها جامعاً سمي باسمه فيما بعد، وكذلك " أحمد بن طولون " بنى فيها جامعاً، كما أن " المعز لدين الله " أمر قائده " جوهر الصقلي " أن يبني جامعاً خاصاً بهم، ليكون هذا الجامع مباحاً فيه المناداة بالمذهب الخاص بهم في مصر، ومقصوراً على مذهبهم فقط، وبمرور الزمن غدا الأزهر جامعاً للجميع و "برلماناً " تعقد فيه الجلسات النيابية حيث يتدارس الناس فيه مشاكلهم التي كانت تواجههم، ويبحثونها في أروقته، كما كانوا يؤدون فيه الشعائر الدينية، ويبحثون مطالبهم وكان " جوهر الصقلي " يجتمع بالمسلمين فيه يوم الجمعة ليحدثهم في أمور الدين والدنيا، كما كان يعلن فيه على الناس أوامر الحاكم بخصوص رفع الضرائب أو الأوامر والتعليمات التنظيمية للدولة.

وكلمة جامع معناها المكان الذي يجتمع فيه، وهذا يختلف في معناه عن كلمة المسجد إذ أن معناها مكان السجود والعبادة، وعلى هذا نرى أن كلمة " الجامع " أشمل وأعم، فجامع الأزهر كان الهدف من إنشائه هو نشر الدعوة الإسلامية والثقافة، فهو كان ملتقى الشيعة يتدارسون فيه أصول مذهبهم، ويخدم أيضاً رسالة الدين التي كانت تقوم بها الجوامع الأخرى في ذلك العصر، وقد كان ذلك هو الهدف الأساسي من بناء

الجوامع في مصر والدول الإسلامية.

" فجامع عمرو " و " جامع ابن طولون " كلاهما كان للعبادة وتحصيل الثقافة الإسلامية كلاهما كان في مصر القديمة، وعلى ذلك اتجه الحكم الفاطمي إلى الأزهر ليترسم الأزهر سياسة الدولة الفاطمية الجديدة بمعناها الديني والسياسي، ثم أصبحت الدراسة به تغلبها الصبغة الدينية واللغوية والمنطق، علاوة على دروس الحساب والهندسة والجبر والفلك، وظلت هذه الدراسة متداولة في أروقته ومساحته عدة عصور مختلفة.

فجامع الأزهر كان - كما يقول " دودج " في كتابه عن " الأزهر " يعنى بدراسة العلوم الإنسانية والفلسفية، ولذلك فقد نهج " جوهر الصقلي " عند إنشائه هذا المنهج كنظام " عمرو بن العاص " و " أحمد بن طولون " في عصريهما وعلى هذا أصبحت " القاهرة الجديدة " تطل على العالم الإسلامي من خلال منارتها الحية " الجامع الأزهر الشريف ".

تطــوره :

كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية على النحو الذي كان متبعاً في إنشاء القواعد الإسلامية الأولى، حيث أنشىء الجامع الأزهر ليكن مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية في حاضرتها الجديدة، ومنبراً لدعوتها الدينية ورمزاً لسيادتها الروحية.

ومعرفة التخطيط الأصلي لهذا الجامع تعد من الأمور الصعبة التي لا يمكن الاهتداء إليها فقد زاد كثير من خلفاء الدولة الفاطمية في بنيانه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه خلال القرون الماضية، كما أضيفت إليه زيادات عدة، وإذا كان الجامع لا يزال يحتفظ ببقية من النقوش والكتابات الكوفية والعقود المنكسرة التي تعد من مميزات العمارة الفاطمية، فإن جل أجزائه الحالية من عصور متأخرة. وكان الجامع يحتوي على محل مسقوف يسمى بالمقصورة ومحل آخر غير مسقوف يسمى " صحن " الجامع الأزهر، وتنقسم المقصورة التي بناها " جوهر " إلى قسمين :

١. المقصورة الأصلية التي أنشأها " جوهر " وهي مكونة من ٧٦ عموداً من المرمر الأبيض.
٢. المقصورة الجديدة التي أنشأها " عبدالرحمن كتخدا " في عام ١٠٦٧هـ وتتكون من ٥٠عموداً من الرخام خلف المحراب القديم.
٣. وبذلك يكون عدد أعمدة المقصورتين ١٢٦عموداً من ٣٧٥عموداً هي جملة هذا البناء الشامخ وكان منبر الجامع وقتئذ من النوع الذي يسحب على عجل، فلا يخرج من مكمنه بجوار المحراب إلا يوم الجمعة، ثم يرد إلى حجرته مثل مسجد الزيتونة بتونس وتوالت التوسعات والتجديدات للجامع في عهود مختلفة، وفي سنة ٤٠٠هـ قام بتجديده الحاكم بأمر الله ووقف عليه وقفية كبيرة وزعت على مرافقه وشئونه كما عني بإصلاحه أيضاً الخليفة الفاطمي " المنتصر بالله " وكذلك أضاف إليه الخليفة "الحافظ لدين الله " بين سنتي ٥٢٤هـ - ٥٤٤هـ/ ١١٢٩-١١٤٩م رواقاً يحيط به من جوانبه الأربعة.

وقبة رأس المجاز حفلت جوانبها بالزخارف والكتابات الكوفية وآيات من القرآن الكريم. وتعتبر هذه القبة أقدم قبة فيه نقشت من الداخل. غير أن الجامع الأزهر أهمل في عهد الأيوبيين وظل معطلاً من إقامة صلاة الجمعة فيه مائة عام حتى قام " الظاهر بيبرس " بإصلاحه وتبرع بالأموال المطلوبة لإصلاحه وتجديده.وأعاد إلى الجامع شبابه وصار حرماً كما كان وسط المدينة. واحتفل بإقامة صلاة الجمعة فيه يوم الجمعة ١٨ من ربيع الأول عام ٦٦٥هـ / نوفمبر ١٢٦٦م، وفي عام ٧٠٢هـ - ١٣٠٢م حدث زلزال مما أثر على جدران الجامع فقام الأمير "سلار" نائب السلطان بعمارة الجامع. ثم تتابع الإصلاح على الجامع، فأصلحه "الأسعدودي " محتسب القاهرة عام ٧٣٥هـ - ١٣٢٥م وكذلك الأمير "سعد الدين بشير الناصري " الذي قام بإزالة المخلفات التي كانت تشوهه، وذلك في سنة ٧٦١هـ - ١٣٦١م كما أنشأ سبيلاً وكُتاباً عند الباب القبلي للمسجد.

وفي عام ٨٠٠هـ - ١٣٩٧م هدمت منارة الجامع حيث كانت قصيرة وبنيت مكانها منارة جديدة أطول من القديمة، وقد بقيت هذه المنارة حتى هدمت في شهر شوال عام ٨١٧هـ - ١٤١٤م لظهور خلل بها، وأعيد بناؤها وفي شهر شوال عام ٨٢٧هـ - ١٤٢٤م شرع الملك " الأشرف برسباي " في عمل صهريج بالصحن على هيئة السبيل انتفع به أهل الجامع، وتم بناؤه في شهر صفر عام ٨٢٨هـ - ١٤٢٤م ونستطيع أن نقول بأن أهم التجديدات والإصلاحات التي أجريت على الجامع هي التي قام بها السلطان " قايتباي " سنة ٨٧٣هـ - ١٤٦٨م وسنة ٩٠١هـ - ١٤٩٥م حيث شملت جميع المسجد وكان لها أثر كبير في صيانته حقبة طويلة ثم قام السلطان " قانصوه الغوري " ببناء منارة جديدة للجامع وذلك في سنة ٩١٥هـ - ١٥١٠م.

وفي سنة ١٠٠٤هـ - ١٥٩٥م قام والي مصر السيد محمد باشا بإصلاحات جديدة للأزهر كما أجرى فيه إصلاحات أيضاً الوزير حسن باشا، عمر (رواق الحنفية) في سنة ١٠٤١م، وكذلك قام الأمير إسماعيل بك القاسمي في سنة ١١٣٤هـ - ١٧٣١م بإصلاح سقف الأزهر وفي سنة ١١٦٣هـ - ١٧٤٩م أهدى الوزير أحمد باشا " كور مزولتين " للأزهر مازالتا حتى الآن.

وفي سنة ١١٤٨هـ - ١٧٣٥م أنشأ الأمير " عثمان كتخدا " (زاوية العميان) خارج الأزهر أمام المدرسة الجوهرية حينئذ خدمة لمكفوفي البصر، ومن أعماله أيضاً (رواق السليمانية) ثم تلته بعد ذلك أكبر حركة إصلاح وتجديد أجريت به وهي التي قام بها الأمير (عبدالرحمن كتخدا) وفي سنة ١١٦٧هـ - ١٧٥٣م، وكان هذا الأمير مغرماً بالعمارة والإصلاح، ولذلك عنى بإصلاح الأزهر وتجديده، كما عني كذلك بتجديد جميع مشاهد أهل البيت والأولياء وأنشأ كثيراً من الأسبلة[1]

---

(١) الأسبلة: جمع سبيل وهو مبنى صغير مملوء بالماء حيث يرتوي منه عابر السبيل.

والمساجد. وفي سنة ١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م أجريت بالجامع إصلاحات جديدة.

هذا وقد قامت الدولة في سنة ١٨٩٦ بإضافة توسعات جديدة للأزهر، واحتفل بافتتاح هذه التوسعات في شوال سنة ١٣١٥هـ - ١٨٩٨م. كما قامت الدولة كذلك بهدم الأروقة القديمة وبنت مكانها أروقة للطلبة الغرباء ثم توالت على الجامع بعد ذلك إصلاحات أخرى.

الأزهر كمؤسسة تعليمية وثقافية وحضارية

لم يكن الأزهر كمسجد أو معهد علمي أول مؤسسة من نوعها في العالم الإسلامي، صحيح أن الأزهر تطور وأصبح جامعة عظمى فسبق غيره في مضمار الرقي، وبارك الله فيه فطال أمده وتخطى الألف الأولى من عمره المديد ولكن مع هذا - كانت هناك معاهد ومؤسسات في العالم الإسلامي سبقت الأزهر، ومهدت له الطريق، وتلقى الأزهر منها بعض التراث فحافظ عليه وحفظه من كل تحريف أو تشويش.

ومن هنا يجدر بنا أن نلم إلمامة سريعة بالحركات العلمية بالعالم الإسلامي قبل الأزهر ثم الحركات العلمية بمصر قبل الأزهر أيضاً.

أولاً: الحركات العلمية بالعالم الإسلامي قبل الأزهر:

الإقبال على العلم طابع المسلمين منذ عصورهم الأولى، فقد تميز الشعب الإسلامي بحرصه البالغ على طلب العلم، واستمر معه ذلك الحرص خلال تاريخه الطويل، وكان الطالب المسلم قوي العزيمة والإرادة ذلل كل الصعوبات التي اعترضته، ولم يكترث بالشوك. ولم يبال بالمخاطر وكان ذلك استجابة للآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة التي تحث على العلم وترفع قدره.

هذا من جهة الطلاب. أما المعلمون فقد كان الرسول ﷺ قدوتهم. وكان المعلم الأول بطبيعة الحال. فقد جلس منذ العهد البكر للإسلام يقرأ القرآن لأتباعه في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ويشرح للمسلمين نظم الدين

الجديد وأفكاره ولما بدأ الإسلام ينتشر في المدينة قبل الهجرة - أرسل الرسول إليها مصعب بن عمير ليقرئ المسلمين القرآن، ويعلمهم الإسلام ويؤمهم في الصلاة، وكذلك فعل الرسول في كل مدن الجزيرة العربية عندما كان الإسلام ينتشر بها.

ولما اتسعت رقعة الإسلام انتقل بعض صحابة الرسول وتلاميذه إلى الأمصار الجديدة، وتحلق حولهم الطلاب، وكان عمر - رضي الله عنه - يرسل الفقهاء والقراء مع الجيوش ليبقوا بالبلاد المفتوحة بعد فتحها، حيث يدعون للإسلام، ويعلمون أحكامه، وقد أنشأ هؤلاء في كل مصر نزلوا به حركة علمية، وكونوا مدارس وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم.

وكانت حلقات العلم تعقد في المساجد والمكتبات ومنازل العلماء، وفي قصور الأثرياء والأمراء عندما ظهرت القصور عقب اتساع الفتوحات على أن المساجد كانت أهم المراكز الثقافية مما أدى إلى أن ارتبط تاريخ التربية الإسلامية بالمسجد ارتباطاً وثيقاً ولعل السبب في جعل المسجد مركزاً ثقافياً هو أن الدراسات في سنوات الإسلام الأولى كانت دراسات دينية، تشرح تعاليم الدين الجديد، وتوضح أسسه وأحكامه وأهدافه، وهذه تتصل بالمسجد، فاتخذوه مكاناً للعبادة، ومعهداً للتعليم، وداراً للقضاء، وساحة تتجمع فيها الجيوش. ومنزلاً لاستقبال السفراء، وقد بكر المسلمون لهذا في إنشاء المسجد، ففي طريق الرسول إلى المدينة بنى أول مسجد في الإسلام في قباء. ثم بنى مسجده بالمدينة عقب وصوله إليها ونزلت الآية الكريمة: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [سورة التوبة: الآية ١٠٨]. وكانت حلقات العلم تعقد في مسجد قباء. كما كان من عادة الرسول ﷺ أن يجلس في مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه تعاليم دينهم وأمور دنياهم. وكثرت بعد ذلك المساجد في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وفي أكثرها كانت حلقات العلم تعقد، والدروس تلقى.

ففي مسجد المنصور ببغداد جلس خيرة العلماء يلقون دروسهم،

وفي جامع دمشق كانت توجد مدرسة للشافعية، ومقصورة الأحناف، وعدة زوايا أخرى يتخذها الطلبة للنسخ والدرس بعيداً عن زحام المصلين.

أما العلوم التي كانت تدرس فقد بدأت كما يقول ابن خلدون : بالعلوم الشرعية وهي التي تسمى " العلوم الفعلية " وهذه تشمل ما يتصل بالكتاب والسُنة والأحكام الشرعية، ثم أضيفت طائفة من العلوم تهيئ للإفادة من العلوم الشرعية كعلوم اللسان العربي، فلم يكن بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي ﷺ الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم، وهذه هي علوم الأحاديث ثم علم أصول الفقه والعقائد وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب. وظل هذا هو منهاج الدراسة في صدر الإسلام، وفي عصر بني أمية، إلا ما عرف من نبذ بسيطة عن الدراسات العقلية التي تنسب إلى " خالد بن يزيد بن معاوية، ومحمد الباقر ".

ويبدو أن دور الأمويين كان التوسع، وجاء دور العباسيين الذي امتاز بنشر المدنية الفكرية في هذا العالم الفسيح الذي ورثوه عن الأمويين. ولهذا برزت في العصر العباسي اتجاهات ثلاثة تصور النهضة الثقافية في هذا العصر، وهذه الاتجاهات هي :

١ـ حركة التصنيف :

ومن أشهر مصنفي العصر العباسي الأول الإمام مالك الذي ألف الموطأ، وابن إسحق الذي كتب السيرة.

٢ـ تنظيم العلوم الإسلامية :

بناء على ذلك فقد استقل علم التفسير بعد أن كان تابعاً لعلم الحديث، وعاش في العصر العباسي الأول أئمة المذاهب الأربعة[١]،

---

(١) وهم: الإمام أحمد بن مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل.

وظهرت طريقة أهل الرأي وطريقة أهل الحديث وظهرت دراسات في التشريع والإدارة مثل كتاب الخراج لأبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، هذا بالإضافة إلى علوم اللسان العربي وظهور مدرستي البصرة والكوفة[١] في البحث والتحقيق.

٣ـ الترجمة من اللغات الأجنبية :

بدأت الترجمة بكتاب " كليلة ودمنة "، وترجمه عبدالله بن المقفع، ثم جاء فيض الترجمة الواسع الذي اشترك فيه " بختيشوع وتلميذه، جبريل" والحجاج بن يوسف بن مطر وحنين بن إسحق وغيرهم ..

وقد شملت الترجمة مختلف المعارف في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات وغيرها وأنشأ هارون الرشيد بيت الحكمة ليرعى هذه النهضة، واهتم بها المأمون فبنى بها مرصداً وزودها بالكتب وعين بها هيئة للترجمة.

وقد امتدح المستشرقون هذه الجهود العلمية، وما أدته للعالم من خدمات سواء بحفظ تراث الأقدمين، أو بما أضافه المسلمون على الكتب المترجمة من تعليقات وشروح، أو بما ابتكره المسلمون في ميادين العلم بعد أن دخلوا هذا المضمار.

ثانياً : الحركات العلمية بمصر قبل الأزهر :

كان الجيش الذي فتح به " عمرو بن العاص " مصر يضم - ككل الجيوش الإسلامية مجموعة من العلماء والفقهاء، وقد حط هؤلاء رحالهم بمصر عقب الفتح. وأغراهم ما وجدوه في مصر من ثراء وجمال فاستوطنوها، وتلا هؤلاء أفواج من العلماء والدارسين، وفي قمة هؤلاء الصحابيان " عبدالله بن عمرو بن العاص، وأبو أمية عبيد بن محمد المغافري ".

---

(١) نسبة إلى مدينة البصرة، ومدينة الكوفة بالعراق.

ويعد عبدالله بن عمرو بن العاص مؤسس المدرسة المصرية. وكان من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ، كما كان يدون ما يسمع منه حتى أصبحت عنده مجموعة من الأحاديث رواها عن النبي مباشرةً، وكان المغافري أول من قرأ القرآن الكريم بمصر.

ومن الذين اشتهروا في مدرسة مصر بعد الصحابة " يزيد بن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعة، وعبدالله بن جعفر، ومن تلاميذ يزيد بن حبيب عبدالله بن لهيعة، والليث بن سعد " وقد اتخذت الحركة العلمية في مصر المسجد الجامع ومسجد ابن طولون مركزين لنشاطها.

والمسجد الجامع ويسمى المسجد العتيق بناه عمرو بن العاص مع مدينة الفسطاط عام ٢١هـ.

وسرعان ما جلس به المعلمون، وحولهم الطلاب. فكان منذ إنشائه قلب الفسطاط الفكري وأهم مركز للدراسة، وقد لبثت ساحته مدى عصور ندوة فكرية أدبية جامعة، وفيها كانت توجه حركة التفكير والآداب في مصر الإسلامية.

ففي عهد مبكر جداً جلس فيه " سليمان بن عتر التجيبي " ليعظ الناس عن طريق القصص، وكان قد جمع بين عملين هما القضاء والقصص. ثم عزل عن القضاء وظل بالقصص، وقد بدأ عمله في عام ٣٨هـ، ثم ازدهرت الحركة العلمية بهذا المسجد وتعددت حلقات العلم حتى زادت عن أربعين حلقة.

ومن أشهر الحلقات التي عقدت بالمسجد الجامع حلقة الإمام الشافعي التي كانت مدرسة تخرج فيها معظم الشيوخ والعلماء مثل : الربيع بن سليمان والمأذني والبويطي والأزدي، وقد ظلت " زاوية الإمام الشافعي " عدة قرون بعده تحمل اسمه، ويجلس للتعليم بها جلة[١] الفقهاء وأعيان العلماء، ومن العلماء الذين عملوا بالمسجد الجامع

(١) معظم.

محمد بن جرير الطبري الذي وفد إلى مصر عدة مرات في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ولما ظهر فضله في دراسات مختلفة وبخاصة في علوم اللغة والشعر طلب منه أبو الحسن بن سراج أن يملي شعر "الطوماح " فاستجاب لذلك وجلس بجامع عمرو لإملائه.

أما جامع ابن طولون فقد فرغ من بنائه سنة ٢٦٥ هـ، وسرعان ما جلس به "الربيع بن سليمان" تلميذ الإمام الشافعي ليملي الحديث، وازدحمت به بعد ذلك الحلقات العلمية وكثر به المعلمون وطلاب العلم، وقد عني به أحمد بن طولون عناية كبيرة وأصبح المركز الثقافي لمدينة القطائع وكانت تلقى به دروس التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة وغيرها من الدروس.

الأزهر مؤسسة تعليمية

بدأ الأزهر كمؤسسة تعليمية - عبر هذه القرون العشرة - في أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي. حيث جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان في شهر صفر سنة ٣٦٥هـ بهذا الجامع - وقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت، وهو المسمى بكتاب " الاختصار " في جمع حافل، وأثبت أسماء الحاضرين فكانت هذه أول حلقة للدراسة والتعليم بالأزهر، وبدأ الأزهر بذلك صفحة جديدة وتاريخاً طويلاً لم يتح لسواه من المؤسسات العلمية في العالم.

وأصبح الأزهر - منذ ذلك العهد البعيد - شعلة نور غالبت ظلام الجهل وقاومته، وغدا مركز الإشعاع الذي انتشر منه الضوء على العالم الإسلامي كله.

وتوالت بعد ذلك الحلقات العلمية التي عقدها بنو النعمان في الأزهر، وبجانب بني النعمان اتخذ يعقوب بن كلس - وزير المعز لدين الله وابنه العزيز - مكاناً في الأزهر معلماً ورائداً، وقرأ على الناس كتاباً ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية يتضمن ما سمعه من المعز

لدين الله ومن ابنه العزيز. ولم تكن دروس الفقه هي كل ما أسهم به الأزهر في أداء رسالته، بل كانت دروس الحكمة تعقد أيضاً بالأزهر وبجانب تلك الدروس كان الأزهر مركز الكثير من المواكب والحفلات الرسمية للفاطميين.

أما فكرة الدراسة بالأزهر فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية للدولة الفاطمية - ولم يكن في حسبان آل البيت أن الأزهر ذلك النبت الصغير وتلك الفكرة العارضة سوف تكبر مع الأيام وتؤتي ثمارها بإذن ربها وتتطور مع الزمان ويغدو مسار العلم والدين وموئل الدارسين على مدى ألف عام ويزيد - وغلب هذا الحدث العارض شيئاً فشيئاً على صفته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعي الخالد. وبدأت الدراسة به ٣٦٥هـ - ٢٩٧٥م في أواخر عهد المعز لدين الله، حيث جلس قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه في فقه الشيعة.

ومن هنا كانت بداية تلك الرحلة الطويلة الألفية للأزهر. ويعتبر الوزير يعقوب بن كلس أول من فكر في اتخاذ الجامع الأزهر معهد للدراسة المنظمة المستقرة، وقد استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٨ـ٩٨٨م في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يعقدون مجالسهم في الأزهر في كل جمعة بعد الصلاة حتى العصر، وكان عددهم سبعة وثلاثين، ورئيسهم ومنظم حلقتهم أبو يعقوب، ورتب لهم أرزاقاً وجرايات شهرية حسنة، وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر.

وعلى ذلك نستطيع أن نقول بأن الأزهر اكتسب صفته العلمية الحقيقية كمعهد للدراسة وأنه بدأ حياته الجامعية الحافلة منذ أوائل العصر الفاطمي.

منافـس جـديد

وما كادت حلقات الدراسة تنتظم بالأزهر حتى ظهر منافس شديد

الوطأة. ألا وهي دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الحاكم. على أن كلا من المعهدين كانت له رسالة خاصة، فبينما كان الأزهر مركزاً للثقافة الدينية المحضة إذ بدار الحكمة تقوم - بجانب مهمتها في نشر المذهب الشيعي - بتدريس علوم اللغة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة وما إليها.

وإلى جانب المكانة العلمية التي كان يتمتع بها الأزهر، كانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة. ففيه كان جلوس قاضي القضاة في أيام معينة، وفيه كان مركز المحتسب العام، كما كان يعقد فيه أيضاً كثير من المجالس الخلافية والقضائية، على أن قطع خطبة الجمعة من الجامع الأزهر في العصر الأيوبي لم يبطل صفته الجامعية بل ظل محتفظاً بصفته كمعهد للدراسة والقراءة، ومع أنه لم يكن يحظى في ذلك العصر بكثير من هيئته العلمية القديمة فقد كان مقصد علماء بارزين مثل : عبداللطيف البغدادي الذي وفد على مصر في عام ٥٨٩هـ وتولى التدريس بالأزهر، وفي المعهد الأيوبي أنشأ صلاح الدين في سنة ٥٦٦هـ المدرسة الناصرية بجوار مسجد عمرو بن العاص لتدريس الفقه الشافعي، ثم أنشأ قريباً منها مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكي. وتولى التدريس فيها فيما بعد الفيلسوف ابن خلدون ثم توالى إنشاء المدارس في مصر والقاهرة على أيدي السلاطين والأمراء وكثر عددها في القرنين السابع والثامن الهجريين كثرة ظاهرة. وقد كان لقيام هذه المدارس وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن - أثر كبير في سير الدراسة بالأزهر، فقد نافسته منافسة شديدة واجتذبت إليها الطلاب من كل صوب، كما اجتذبت إليها أيضاً أعلام الأساتذة وكانت تمتاز على الأزهر بجدتها ووفرة أوقاتها واستئثارها برعاية السلاطين والكبراء. ومن ثم كان الأزهر في هذه الفترة يمر بحالة ركود. إلا أنه كان يضم من الطلاب دائماً العدد الجم نظراً لاتساع مجال الدراسة فيه وتنوعها. حيث كان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب. وتدرس به سائر العلوم الدينية والعربية، وهذا لم يكن ميسوراً أو متاحاً في هذه المدارس، ومن جهة أخرى كان الأزهر مقصد الطلاب الغرباء من كل

صوب. وكان يقطن في أروقته عدد كبير منهم.

ازدهار الحركة العلمية

بلغت الحركة العلمية والأدبية في مصر الإسلامية ذروتها من التقدم في أواخر القرن الثامن الهجري وأوائل القرن التاسع الذي حفل على الأخص بعدد كبير من الأساتذة البارزين في سائر العلوم والفنون وساهم الأزهر - إلى جانب المدارس الأخرى - بنصيب كبير في إعداد هذه الحركة وفي تخريج العدد الجم منها. وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع - أي منذ غدت معاهد بغداد وقرطبة - كعبة الأساتذة والطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامي.

ومنذ القرن الثامن الهجري تبوأ الأزهر في مصر والعالم العربي والإسلامي نوعاً من الزعامة الفكرية والثقافية، حيث كان يتمتع في ظل دولة المماليك برعاية خاصة وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ ويشغلون وظائف القضاء العليا ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد وكان هذا النفوذ يصل أحياناً إلى التأثير في سياسة الدولة العليا، وأحياناً في مصائر العرش والسلطان وتعتبر هذه الفترة في الواقع هي عصر الأزهر الذهبي من حيث الإنتاج العلمي الممتاز، ومن حيث تبوأه مركز الزعامة والنفوذ.

إحن ومحن

في أواخر القرن التاسع أخذت الحركة الأدبية في مصر في التدهور والاضمحلال. واضطربت أحوال المدارس المصرية، وتضاءلت مواردها وأصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرى من الذبول والركود، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى وقعت مصر تحت الاحتلال العثماني سنة ٩٢١هـ - ١٥١٧م. وأصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من انحلال وتدهور، واختفى من حلقاته كثير من العلوم التي كانت زاهرة من قبل.

على أن الأزهر - رغم هذه المحنة - استطاع أن يستبقي شيئاً من مكانته، وأن يؤثر بماضيه التالد وهيبته القديمة في نفوس الغزاة أنفسهم. فنجد الفاتح التركي يتبرك بالصلاة به غير مرة، ونجد الغزاة يبتعدون عن كل ما يضر به، ويحلونه مكانة خاصة، ويحاولون استغلال نفوذ علمائه كلما حدث إضراب أو ثورة داخلية.

وفي خلال ذلك يغدو الأزهر ملاذاً أخيراً لعلوم الدين والفقه واللغة، وغدا بنوع خاص معقلاً حصيناً للغة العربية. واحتفظ في أروقته بكثير من قوتها وحيويتها، ودرأ عنها عادية التدهور النهائي ومكنها من مغالبة لغة الفاتحين ومقاومتها. وردها عن التغلغل في المجتمع المصري.

شمعة في الظلام

وهكذا استطاع الأزهر في تلك الأحقاب المظلمة أن يسدي إلى اللغة العربية أجل الخدمات وظلت مصر خلال العصر التركي ملاذ طلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية من سائر أنحاء العالم العربي الإسلامي، واستطاعت لحُسن الطالع بفضل الأزهر أن تحمي هذا التراث نحو ثلاثة قرون حتى انقضى العصر العثماني بظلماته ومحنه، وقيض لها أن تبدأ منذ أوائل القرن التاسع عشر حياة جديدة يمازجها الفوز والأمل، وربما كانت هذه المهمة السامية التي ألقى القدر زمامها إلى الأزهر - في تلك الأوقات العصيبة في حياة الأمة المصرية والعالم الإسلامي بأسره - هي أعظم ما أدى الأزهر من رسالته وأعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل.

الأزهر مؤسسة ثقافية

لم يكن دور الأزهر الثقافي مقصوراً على العلوم الدينية واللغوية كما يظن الكثيرون فإن الإسلام لا يفرق بين المعارف والعلوم بل يدعو إلى التفكر في ملكوت السموات والأرض ويهتف في إسماع أتباعه أن الله خلق لكم ما في الأرض جميعاً،وأنه سخر لكم ﴿ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ

بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣] وأنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] وأنه ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] - ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] فالإسلام يجمع بين الدنيا والدين وبين الأرض والسماء، وكذلك بين المطالب المادية والروحية. ويقرر أن طلب العلم على إطلاقه فريضة على كل مسلم ومسلمة، ويؤكد أن السعي في سبيل الرزق من أقرب العبادات إلى الله.

ولهذا كان علماء المسلمين في عصر ازدهار الإسلام يدرسون جميع أبواب أنواع العلوم والفنون وكان منهم الفقيه والطبيب والفلكي والمهندس والعالم الطبيعي والكيميائي والجغرافي والمؤرخ والرحالة والرياضي، وظل الأزهر يحرص على دراسة هذه العلوم حتى في أشد عهود التدهور والجمود، وإن كان هذا في نطاق يضيق ويتسع حيناً لتأخر الثقافة وانتشار وسيطرة التقاليد، أو تبعاً لازدهار المدنية وتقدم العمران.

والواقع أن من يتبع تاريخ الأزهر يجد أنه قد أسهم في جميع المعارف والعلوم بالدرس والبحث والتأليف. فقد كانت الدراسة بالأزهر في عهد الفاطميين تغلب عليها الصبغة الدينية واللغوية، ولكن كان إلى جوارها دروس عديدة في المنطق والحساب والهندسة والجبر والفلك وهكذا في معظم العصور.

الأزهر مؤسسة حضارية

الأزهر واجهة مصر الحضارية

إذا كانت مصر قد وضعتها الأقدار في هذا الموقع الخطير على خريطة العالم. حيث تقع مركز اتصال بين آسيا وأفريقيا ترسل من أشعتها هنا وهناك. فإن الأزهر قد أدى في هذا المكان دوراً رائعاً عظيم الأثر في

الفكر الإسلامي على وجه الخصوص والفكر العالمي بصفة عامة. حيث وقف الأزهر - كمؤسسة حضارية في الداخل والخارج وعلى امتداد أكثر من ألف عام يستقبل طلاب الدول العربية والإسلامية ويزودهم بالعلوم والمعارف والثقافة الرفيعة، ثم يعودوا إلى بلادهم سفراء العلم والحضارة يبلغون دعوة الإسلام على أصولها كما تعلموها ودرسوها. ويصبحون همزة الاتصال والوصال بين مصر وأزهرها وبلادها.

ظل الأزهر يرسل دعاته وأفكاره في كل اتجاه ينشر العلم والمعرفة، ويدعو إلى كلمة التوحيد. بينما كانت الدنيا تقفر من حوله أحياناً، ودور الثقافة تدمر وتحرق الكتب. يقف الأزهر وحده، يصارع الحوادث ويناضل الأحداث، ويتصدى لدعاة الباطل، حتى يعيد للشعلة ضوءها الوهاج، وللمعرفة مكانها المرموق، ومن ثم غدا الأزهر بحق ممثلاً الفكر الإسلامي ولتاريخ المسلمين.

وهو الجامعة الإسلامية الأولى التي فتحت أبوابها على أوسع نطاق لتتلقى الطلاب من كل فج ولتقدم لهم كل ما تستطيع من عون ورعاية، فتعنى كل العناية بهؤلاء الطلاب الوافدين من شتى الأقطار العربية والإسلامية. كما يقوم الأزهر بإيفاد كثير من خريجيه للخارج للقيام بالدعوة الإسلامية ونشر الثقافة العربية في ربوع العالم الإسلامي، ولم يكن الأزهر معهداً علمياً فحسب بل كان مؤسسة حضارية. إذ أنه كان مصدر إشعاع فكري وثقافي ومبعث حضارة مادية وروحية، وقلعة حصينة للعروبة والإسلام وكان علماؤه الأعلام أمثال الإمام محمد عبده وجمال الدين الأفغاني والشيخ الشرقاوي، وسعد زغلول وأحمد عرابي، رجال فكر وزعماء إصلاح، وبهذا استطاعوا أن يحملوا أمانة الرسالة وأن يكونوا ورثة الأنبياء.

دور الأزهر الروحي

للأزهر أدوار روحية خالدة، قاوم فيها شتى تيارات الإلحاد

والانحرافات والمذاهب الهدامة والحملات التبشيرية ودعاة الفوضى والانحلال، وتصدى للإرهاب الفكري والمستشرقين المنحرفين وأدعياء المذاهب الهدامة. واستطاع أن يحفظ التراث الإسلامي في نشر لغة القرآن ومبادئ الإسلام في كثير من الأمصار، ويعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره في تقدم البشر ورقي الحضارة وكفالة الأمن والطمأنينة وراحة النفس لكل الناس في الدنيا والآخرة ويحاول دائماً تأكيد وتأصيل المبادىء والقيم الروحية.

ولهذا كان الأزهر مقصد طلاب العلوم العربية والثقافات الإسلامية في شتى أنحاء العالم كما كان مصدر الدعوة إلى مختلف الأمم والشعوب، وهو الآن ملتقى آلاف الطلاب من أنحاء العالم، كما أنه مصدر مئات العلماء إلى مختلف القارات.

وطالما كان الأزهر ملاذاً لعامة الشعب يهرعون إليه في الأزمات ملتمسين من علمائه الإرشاد والتوجيه ملقين إليهم بالقيادة الرشيدة الحكيمة فيجدون لديهم وعندهم تفريج الكربات وحل الأزمات ومواطن الأمان وسكينة النفس وراحة القلب. وكان منطقة أمن للشعب يلتمس فيه الهداية، ويفزع إليه المظلوم. ومأوى الفقراء والحجاج ورحال التصوف وغيرهم. وكثيراً ما كان علماء الأزهر يقفون في وجه الطغاة المستبدين من الحكام وكان عامة الشعب إذا وقع عليهم حيف أو دهمهم اغتصاب هرعوا جماعات منهم إلى الجامع الأزهر في هتاف وصياح وخلفهم النساء والصبيان، ثم تصعد جماعةٌ منهم إلى مآذنه مستصرخين الناس، فيفض العلماء حلقات الدراسة، ويغلقون أبواب الأزهر ويستمعون إلى شكاوى المستغيثين ثم يؤلفون وفداً منهم لمقابلة الحكام المستبدين وإنذارهم بالثورة المدمرة. فلا يلبث هؤلاء أن يتراجعوا صاغرين نادمين.

كما كان علماء الأزهر يلفتون نظر الحكام وينبهونهم إلى أن طاعة الحاكم واجبة، إذا لم يخالف الشرع، وأن قاعدة الحكومة الإسلامية أنه " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ". وفي أحد المواقف صب الشيخ

" علي الصعيدي " غضبه على الأمير يوسف بك الكبير في وجهه، ولعن من باعه. ومن اشتراه، ومن جعله أميراً، فاسترضاه الأمير ونزل على مشورته. وأخذ بآرائه. وقد ذكر الجبرتي مواقف رائعة للأزهر، نكتفي بذكر بعضها:

ذكر الجبرتي في تاريخه أن الحاكم حسين بك المعروف بـ " شفت " كان رجلاً طاغية جباراً يصادر أموال الرعية ويتهجم على البيوت، وأنه ذهب بجنوده إلى بيت أحمد سالم الجزار شيخ دراويش البيومي فنهب ما فيه حتى الفراش وحلي النساء فحضر أهل الحسينية إلى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والتف حولهم العامة، وبأيديهم العصي وتفرقوا في أنحاء الأزهر وأغلقوا أبوابه، وصعد بعضهم إلى مآذنه يصيحون ويضربون الطبول وانتشر فريق منهم في الأسواق القريبة من الأزهر في حالة منكرة ثم قابلوا الشيخ الدردير. فذكروا له ما حدث فغضب لحرمات الله وقال لهم: في غد تجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم، فارتاع المماليك وأوفدوا رسلهم إلى الشيخ الدردير نادمين طالبين إليه أن يرسل قائمة بما نهبه حسين بك وجنوده ليردوه إليه وفعلاً ردوا إليه جميع ما اغتصبوه.

وكان الشيخ الدردير شجاعاً مقداماً لا يخشى في الحق لومة لائم. حدث يوماً وهو في مولد السيد البدوي أن صادر أحد الحكام أموال بعض الرعية، فطلب من بعض أتباعه أن يذهبوا إلى هذا الحاكم ليطلبوا إليه رد الأموال المغصوبة، ولكنهم خشوا أن يذهبوا إليه فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل خيمة هذا الحاكم وهو راكب بغلته، وأغلظ له القول فاضطر إلى إرضائه وإرجاع ما اغتصبه من أموال.

وفي سنة ١٢٠٩هـ (١٧٩٥م) حدث عدوان من أمراء المماليك على بعض فلاحي مدينة بلبيس، فحضر وفد منهم إلى الشيخ عبدالله الشرقاوي فغضب وتوجه إلى الأزهر، فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمروا الناس

بترك الأسواق والمتاجر وركب الشيخ في اليوم التالي وتبعهم كثير من الناس إلى بيت الشيخ محمد السادات واحتشدت جموع عديدة من الشعب، فأرسل إليهم الأمراء أحدهم، وهو أيوب بك الدفتردار. فسألهم عن أمرهم. فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات أي الضرائب.

وخشي إبراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة. فأرسل إلى العلماء - وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر - قائلاً لهم : أنه يؤيدهم في غضبهم ويبرىء نفسه من تبعة الظلم، ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك، وأرسل في الوقت نفسه إلى مراد يحذره عاقبة الثورة واستسلم مراد بك،ورد ما اغتصبه من أموال، وأرضى نفوس المظلومين.

ولكن العلماء لم يقتنعوا بهذا، بل أصروا على وضع نظام يمنع الظلم ويرد العدوان فاجتمع الأمراء وأرسلوا إلى العلماء فحضر منهم الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير، وكان هؤلاء رسل الثورة وقوادها، وطال الجدل بين الشيوخ والأمراء ثم انتهى بأن أعلن الظالمون أنهم تابوا والتزموا ما اشترطه عليهم العلماء، وأعلنوا أنهم سيبطلون المظالم والضرائب المحدثة، ويأمرون أتباعهم بالكف عن سلب أموال الناس، ويرسلون أوقاف الحرمين الشريفين والعوائد المقررة إليهما. ويسيرون في الناس سيرة حسنة وكان قاضي القضاة حاضراً هذا المجلس فكتب على الأمراء وثيقة أمضاها الوالي العثماني وإبراهيم بك مراد شيخا البلد، وانصرف العلماء من هذا المجلس وسط جموع الشعب التي أعلنت بهجتها بهذه الوثيقة الخالدة التي هي وثيقة الشبه بوثيقة حقوق الإنسان، ومن علم الأزهر شع نور الإسلام في بلاد كثيرة من أفريقيا ومن آسيا وزاد عدد المسلمين عشرات الملايين. وكانت بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر سبباً لتوثيق العلاقات ببلاد وشعوب كثيرة منذ أقدم العصور إلى اليوم.

وقد اكتسب الأزهر بذلك قدسية واحتراماً من الجميع، وصار رأيه

هو الرأي في كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة. وأصبح هو الجامعة الإسلامية الكبرى في الشرق والغرب. لا يطلب أحد علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر، ولا تتجه قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلا إليه، حيث يفد إليه أولادهم للتزود منه بالعلوم والمعارف فهو كعبة العلم وقبلة المسلمين.

دور الأزهر التاريخي

قام الأزهر بدور كبير في إذكاء الحركة الوطنية في مصر في العصور الحديثة وقد تجلت زعامته الشعبية والعلنية بأروع مظاهرها خلال الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨ - ١٨٠١م. حينما تولى شيوخه وطلابه قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها والتصدي لجنود الحملة. وكان الأزهر على رأس كل ثورة وطنية اضطرمت بها القاهرة ضد المحتلين وقد تحمل الأزهر خلال تلك الحوادث أعظم التضحيات فضُرب بالقنابل ودخلت خيول نابليون صحنه واحتلت ساحته وأروقته وانتهكت حرمته. وأعدم عدد من شيوخه وطلابه.

وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر وقف الأزهر في وجه المماليك والعثمانيين الذين أساءوا معاملة المصريين. كما وقف الأزهر أيضاً في عام ١٨٠٧م ضد حملة "فريزر ". ووقف الشعب كله ضد هذه الحملة ولعب الأزهر دوراً كبيراً في صدها. كما شاء القدر أيضاً أن يتيح للأزهر فرصة الجهاد مرة أخرى في ثورة ١٩١٩، حيث قام بدور ملحوظ في تلك الثورة، وكانت ساحة الأزهر مركزاً لتنظيم المظاهرات الوطنية الكبرى. وفي ١١ ديسمبر عام ١٩١٩ اقتحم جنود الإنجليز الأزهر. فأثار ذلك سخطاً واستنكاراً وغضباً في أنحاء الديار المصرية وبعد ثورة ١٩١٩ شارك الأزهر في جميع الحركات الوطنية في مصر. ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وعرف رجالها ما للأزهر من مكانة ومنزلة ودور فعال في نفوس المواطنين والشعب فكانوا يلجئون إليه عند الشدائد والخطوب.

دور الأزهر العلمي

للأزهر أدوار علمية خالدة بعث فيها أشعة العلم والعرفان في أقطار العالم وحفظ فيها اللغة العربية والثقافة الإسلامية في عصور التدهور والانحطاط وسيادة الاستعمار الغربي على الأقطار الإسلامية ولا سيما بعد أن قضى التتار على الدولة العباسية في بغداد في منتصف القرن السابع الهجري، وقوضوا صروح المدنية الإسلامية في المشرق وسقطت بغداد تحت أقدامهم فاجتاحوا الجانب الشرقي للعالم الإسلامي ودمروا حضارته وهدموا في سنين قليلة مدينة بناها المسلمون في قرون، وقتلوا خليفة المسلمين سنة ٦٥٦هـ، ومعه كثير من المسلمين،وانقض هؤلاء البرابرة على الكتب يحرقونها والمؤسسات العلمية يزيلونها.

وبينما كان هذا يحدث في الجانب الشرقي للعالم، كان هناك هجوم مماثل يحدث في الجانب الغربي في الأندلس وشمالي أفريقيا. فقد قام الفرنجة بهجوم على مسلمي الأندلس كما امتد عدوانهم إلى الشمال الأفريقي وأسقطوا بعض مدنه وهددوا ساحله، وكما سقطت بغداد سقطت أيضاً أسبانيا المسلمة وعفت معاهدها وحضارتها الشهيرة وسقطت غرناطة آخر معاقلها (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م)[(١)]، ووقفت مصر في منتصف الطريق تستقبل النازحين من هنا وهناك، وتستخلص الكتب التي نجت من هول الحريق والدمار،وتفسح صدرها للعلماء الذين فروا من الظلم والاضطهاد، وتركزت آمال المسلمين في مصر - وخاصة أنها كانت مستودع هذا التراث - وآمال الفكر الإسلامي في معاهد القاهرة ولا سيما الأزهر. وجاهدت مصر حتى انتصرت على المغول وشتت شملهم في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م)، وأنقذت منهم العالم الإسلامي أما الأزهر فقد نهض بالمهمة التي ألقتها عليه الأقدار خير قيام، وفتح صدره لهؤلاء العلماء الوافدين، واستأنفوا نشاطهم العلمي والفكري في رحاب الأزهر،

---

(١) دكتور أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - جـ٤.

وأجادت قرائحهم بأبدع أنواع العلوم والمعرفة، وقد شهد العلماء المصريون والوافدون أزهى عصور الأزهر، وابتدأت هذه الفترة الزاهرة في القرن الثامن الهجري، وبلغت ذروة مجدها في القرن التاسع وظل الأزهر دائماً مقصد سائر العلماء الوافدين على مصر من الشرق والغرب ونتيجة لتقدم الأزهر ونشاطه العلمي في هذا العصر ظهرت بمصر مجموعة من العلماء والأفذاذ قادوا الفكر في مختلف فروعه الإنسانية والإسلامية وفيما يلي أبرزهم :

البوصيري الشاعر الأديب ذائع الصيت	٦٢٥ هـ
ابن دقيق العيد الفقيه	٧٠٢ هـ
النويري صاحب نهاية الأرب	٧٣٢ هـ
ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار	٧٤٨ هـ
ابن هشام صاحب المؤلفات الشهيرة في النحو	٧٤٩ هـ
صفي الدين الحلي الشاعر	٧٥٠ هـ
تقي الدين السبكي رئيس علماء الشافعية وله ١٥٠ كتاباً	٧٥٦ هـ
ابن منظور صاحب لسان العرب	٧٦١ هـ
ابن عقيل النحوي الشهير	٧٦٩ هـ
البلقيني " شيخ الإسلام "	٨٠٥ هـ
الدميري صاحب كتاب " حياة الحيوان "	٨٠٨ هـ
ابن دقماق مؤرخ مصر	٨٠٩ هـ
(الفيروز آبادي) صاحب القاموس المحيط	٨١٧ هـ
القلقشندي صاحب صبح الأعشى	٨٢١ هـ
تقي الدين بن حجة الحموي صاحب خزانة الأدب	٨٣٧ هـ
المقريزي صاحب الخطط - وغيرها	٨٤٥ هـ
الحافظ ابن حجر العسقلاني المحدث الشهير	٨٥٢ هـ

العيني صاحب عقد الجمان	٨٥٥ هـ
السخاوي صاحب الضوء اللامع	٩٠٢ هـ
السيوطي صاحب تاريخ الخلفاء وله ٥٠٠ مؤلف	٩١١ هـ
ابن إياس المؤرخ	٩٣٠ هـ

ومن العلماء الذين وفدوا على مصر في هذا العصر ابن خلدون، وابن بطوطة، ومحمد تقي الدين الفاسي، وشمس الدين الأصفهاني ومحمد بن يوسف بن حيان الغرناطي.

ولما بدأت النهضة العلمية في مستهل العصر الحديث لم تجد لها منبعاً إلا في رحاب الأزهر، فقد كان معظم المبعوثين إلى أوروبا من رجال الأزهر النابغين. وفي مقدمتهم رفاعة الطهطاوي،ثم عادوا بعد أن تخصصوا في مختلف العلوم والفنون فوضعوا أسس النهضة العلمية والفنية والثقافية التي خطت بالبلاد خطوات جبارة في سبيل النمو والازدهار. وحينما بدأت الدولة تأخذ بأساليب المدنية أنشأت عدداً من المدارس العليا المتخصصة، واختارت لها النابهين من أبناء الأزهر.

وقد نبغ في الرعيل الأول من الأطباء علماء أجلاء من نابهي الأزهريين ومن أشهرهم : إبراهيم النبراوي، وأحمد حسن الرشيدي، ومحمد علي باشا البقلي، ومأمون بلال وهم الذين وضعوا أساس النهضة الطبية في العصر الحديث، وعربوا كثير من أبحاث الطب إلى اللسان العربي، كما نبغ من الأزهريين قضاة ومستشارون وضعوا أسس القضاء الحديث، ورسموا دستوراً قوياً في المحاماة والقضاء والتشريع، ومن ألمعهم الإمام محمد عبده وسعد زغلول، والشيخ مصطفى المراغي، والشيخ الشناوي، والشيخ إبراهيم حمروش والشيخ فرج الشهوري، كما لمعت طائفة منهم في ميادين الكتابة والشعر والصحافة.

ولما اتسعت ميادين النهضة الحديثة كان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا الأسس ورفعوا البناء، فقد كان أساتذة جامعة القاهرة

عند تكوينها من أعلام علماء الأزهر، وكذلك بقية الجامعات. ومن دوحة الأزهر المباركة نبتت مدرسة الألسن في عهدها الأول وكذلك مدرسة القضاء الشرعي وكلية دار العلوم.

لقد قام الأزهر بواجبه خير قيام في النهضة العلمية. حيث رعى العلم في عصر الظلمات التي اجتاحت العالم الإسلامي أثناء حرب المغول، واحتلال الدولة العثمانية واستطاع أن يحمي هذا التراث العلمي من العبث والضياع، والذي لولاه لجف الأمل وانطفأ آخر أشعة النور في العالم العربي والإسلامي. كما اهتم أيضاً ببعث الحضارة العربية والإسلامية، وإحياء التراث العلمي والفكري والروحي للأمة العربية، ويعمل على تزويد العالم الإسلامي بالعلماء العاملين الذين يجمعون إلى الإيمان بالله والثقة بالنفس وقوة الروح والثقة في العقيدة والشريعة ولغة القرآن كفاية علمية وعملية ومهنية لتأكيد الصلة بين الدين والحياة، والربط بين العقيدة والسلوك وتأهيل عالم الدين للمشاركة في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

كما قام الأزهر بافتتاح عدة مراكز ثقافية في أفريقيا وآسيا وأوربا وأمريكا لربط مسلمي هذه الدول بالدين الإسلامي وبإخوانهم المسلمين في الشرق ويجمع في رحاب جامعته الآن ٥٤ جنسية من مختلف أنحاء العالم.

قائمة بأسماء العلماء

الذين تولوا التدريس في الأزهر

وقد اشتهر من علماء الأزهر كثير من العلماء الذين تولوا التدريس فيه خلال تلك القرون، وألقوا وصنفوا في مختلف المواد وكان لهم في مجال التعليم باع طويل. وأثر عميق. ولا يتسع المقام هنا لسرد أسمائهم ومؤلفاتهم. ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ما ذُكر في كتاب " الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة "، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية،

وما ذكر في " عجائب الآثار " للجبرتي في الجزء الأول، من تراجم وافية لهؤلاء، ومنهم : نور الدين علي البحيري الشافعي المتوفى عام ٩٤٤هـ، والعلامة شهاب الدين بن عبدالحق السنباطي المتوفى عام ٩٥٠هـ، وعبدالرحمن المناوي المتوفى عام ٩٥٠هـ، وشمس الدين الشيشيني القاهري الشافعي، والإمام شمس الدين أبو عبدالله العقلمي المتوفى عام ٩٦٢هـ، والإمام شمس الدين الصفدي المقدسي الشافعي المتوفى حوالي عام ٩٩٠هـ وعبدالباقي بن يوسف الزرقاني المالكي المتوفى عام ١٠٩٩هـ، والعلامة شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوي المتوفى عام ١١٠١، والعلامة شمس الدين محمد بن محمد، الشهير بالشرنبابلـــي، المتوفى عام ١١٠٢، والإمام العلامة إبراهيم بن محمد شهاب الدين البرماوي المتوفى عام ١١٠٦ـ والشيخ حسن بن علي بن محمد الجبرتي - جد والد الجبرتي المؤرخ - وقد توفي عام ١١١٦والعلامة عبدالحي بن عبدالحق الشرنبلالي المتوفى عام ١١١٧ للهجرة.

هذه بعض أسماء العلماء الذين تولوا التدريس بالأزهر في أوائل العصر العثماني وأواسطه، والشرقاوي والشبيني، والفقيه الشيخ الحماقي الحفني، والمحدث منصور بن عبدالرازق الطوخي الشافعي، والفقيه الصالح الشيخ أحمد بن أحمد السنبلاوي، والشاعر الكاتب محمد بن رضوان السيوطي الشهير بابن الصلاحي، والفقيه المحدث شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن الحسن الخالدي، الشافعي الأزهري الشهير بالجوهري، والشيخ عبدالرءوف بن محمد الشبيشي، وشيخ مشايخ الإسلام الشيخ علي العدوي المالكي، والمفتي الفقيه الشيخ إبراهيم الشرقاوي، والشيخ علي الشاوري المالكي، والشيخ مصطفى الدمنهوري، والشيخ عبدالرحمن الأجهوري، والشيخ محمد بن علي الصبان، والشيخ أحمد العمروسي، والشيخ شهاب الدين السمنودي المحلي، والشيخ أحمد السماليحي الشافعي، والشيخ عبدالرحمن النحراوي الأجهوري .. إلى آخر ما سرده

الجبرتي في تاريخه مما لا يتسع له المجال.

ولهؤلاء العلماء، مع ما كانوا يقومون به من التعليم والتدريس بالأزهر، مؤلفات لا تزال تدرس حتى الآن، ولا يزال الانتفاع بها موصولاً في الأزهر.

أروقــة الأزهــر[١]

يقتضينا المقام أن نتحدث عن أروقة الأزهر إذ أنها قطعة من تاريخ الأزهر، وقديماً ارتبط تخطيطه الهندسي بها.

ولعل هذه التسمية نشأت بسبب شغل الطلبة لأروقة المسجد المحيطة بالصحن ويبلغ عدد أروقة الأزهر التي لا تزال باقية حتى الآن ٢٩ رواقاً، ١٤ حارة :

١. الرواق العباسي.
٢. رواق الطيبرسية.
٣. رواق الأقبقاية.
٤. رواق الأكراد.
٥. رواق الهنود.
٦. رواق البغداديين.
٧. رواق البرنية.
٨. رواق اليمنية.
٩. رواق الجبرت.
١٠.رواق الأتراك.
١١.رواق السنارية.
١٢.رواق المغاربة.

---

(١) الأروقة: جمع رواق وهو المكان الذي يقيم فيه الطلبة.

١٣.رواق السليمانية.
١٤.رواق جاوة.
١٥.رواق الشوام.
١٦.رواق الصعايدة.
١٧.رواق الحرمين.
١٨.رواق البرابرة.
١٩.رواق دكارنة سليح.
٢٠.رواق الشرافوة.
٢١.رواق الجوهرية.
٢٢.رواق زاوية العميان.
٢٣.رواق الحنابلة.
٢٤.رواق معمر.
٢٥.رواق الفشنية.
٢٦.رواق الحنفية.
٢٧.رواق الشنوانية.
٢٨.رواق الفيومية.
٢٩.رواق البحاروة.

- ويبلغ عدد حارات[١] الأزهر ثلاث عشرة حارة هي :

١. حارة البيجومية.
٢. حارة العفيفي.
٣. حارة الزراقنة.
٤. حارة البشاشة.

---

(١) الحارة: هي المكان الذي يحتفظ فيه الطلبة بأمتعتهم.

٥. حارة السليمانية.
٦. حارة الجيزاوية.
٧. حارة الدكة.
٨. حارة الممشى.
٩. حارة النفاورة.
١٠.حارة الزهار.
١١.حارة الواطية.
١٢.حارة الشنوانية.
١٣.حارة المناصرة.

وكان لكل حارة شيخ ونقيب وخزان ومجاورون، وكان لكل من هؤلاء مرتبات ثابتة كالأروقة ويوجد بالأزهر ثلاثة عشر محراباً وست مآذن، وللجامع تسعة أبواب أهمها الباب الرئيسي المعروف بباب المزينين، وهو مكون من بابين.

مكتبـــة الأزهـــر

لم يكتف الأزهر بذلك النشاط العلمي بل قام أيضاً في سنة ١٨٩٧م بإنشاء أحدث مكتبة من أشهر مكتبات العالم، نظراً لما تحويه من نفائس المخطوطات ونوادر المؤلفات وتعمل المكتبة على تزويد راغبي الثقافات على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم بالمواد العلمية في جميع فروعها كي تصل بهم إلى غاياتهم، وتفتح أبوابها لمحبي الاطلاع ورواد المعرفة على اختلاف أجناسهم حيث يطالعون فيها ما يشاءون من الكتب، ويستعيرون منها ما يريدون، وتتبادل المكتبة مع المكتبات الأخرى المخطوطات النادرة لنسخها أو تصويرها، كما يستعين الناشرون بمخطوطاتها في الدراسات والأبحاث.

وكان عدد الكتب حين إنشاء المكتبة (٧٧٠٣) كتاباً، منها (٦٦١٧)

كتاباً بطريق الإهداء، (١٠٨٦) كتاباً بطريق الشراء، وعدد مواردها وفنونها ٢٨ فناً، تشتمل على المصاحف، القراءات، التفسير، الحديث، مصطلح الحديث الأصول، فقه الأئمة الأربعة، النحو، الصرف، البلاغة، التوحيد، المنطق، التصوف، الأدب والمديح، الآداب والمواعظ، الأحزاب والأوراد والأدعية، الوضع، آداب البحث، العروض، الفلك والميقات، الحساب والهندسة، اللغة، الطب، الفنون، المجاميع، ومع التقدم وتزويد المكتبة بكل فنون العلوم فقد بلغ عدد كتبها الآن حوالي ٨٩١٢٣ كتاباً تقع في ١٩٣٦٦٨ مجلداً، وأصبحت موزعة على الفنون الآتية بسبب تفرع بعض المواد إلى فروع بحيث أصبح عدد فنونها الآن ٦٠ فناً لكل منها عنوان خاص. وهذه هي الفنون أو المواد الآن :

المصاحف، القراءات، علوم القرآن، التفسير، مصطلح الحديث، الحديث الأصول، فقه الأئمة الأربعة، المواريث، حكمة التشريع، الفقه العام، علم الكلام، المنطق، آداب البحث، الفلسفة، التصوف، آداب الفضائل، لغة، صرف، نحو، وضع، بلاغة، عروض وقوافي، أدب، تاريخ، تقويم البلدان، الأخلاق والتربية والاجتماع، القوانين واللوائح، الطب، الحساب، الهندسة، الجبر والمقابلة، الفلك، الهيئة، الأدعية والأوراد، تعبير الرؤيا، الحرف والرمل، الفراسة والكف، الخط والرسم والإملاء والاقتصاد السياسي، التجارة والصناعة، مسك الدفاتر، الزراعة، الطبوغرافيا، الكيمياء والطبيعة، الفروسية والفنون الحربية، الموسيقى، الصور والرسوم، النحل الإسلامية، شرائع غير إسلامية، دوريات، إحصائيات ونشرات وتقارير، معارف عامة، اللغات الأجنبية، اللغات الشرقية. كما تضم مكتبة الأزهر نوادر في كثير من الفنون قل أن تتيسر في مكتبة أخرى... وقد بلغت مخطوطاتها الآن نحو ٢٤٠٠٠ مجلد، وكان لتطور الأزهر في العصر الحديث أثر في تنشيط الطلاب وحفزهم على الدراسة والبحث فأقبلوا على المكتبة في نهم ينشدون معونتها في تلبية رغباتهم العلمية فاستجابت المكتبة لرغباتهم وسهلت لهم

سبل الانتفاع عن طريق الإعارة، وبذلك تضاعف عدد المطالعين.

دور الأزهر الاجتماعي

لم يعد دور الأزهر قاصراً على الجانب الروحي أو التاريخي أو السياسي بل تعداه أيضاً إلى الدور الاجتماعي يحمل رسالة الدين إلى الشعب وتفاعله وتلاحمه مع المجتمع وتحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله وتوصيل الثقافة الإسلامية الصحيحة إلى الجماهير في صورة محببة وعرض شائق لتقوية الوعي الديني والخلقي والاجتماعي والوطني في نفوس الشعب وتثقيف المواطنين بالثقافة الحرة التي لا تخضع لقيود المعاهد والمدارس، ودراسة المشاكل الاجتماعية بين الأفراد والأسر والجماعات والسعي لحلها بالطرق الودية على ضوء الدين. والإسهام الإيجابي في تنفيذ مشروعات الإصلاح العامة في القطاع الحكومي والأهلي، وفي جميع الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وبالجملة فإن مهمة دور الأزهر أيضاً هي إرساء قواعد الفضيلة في شتى صورها، ومحاربة الرذيلة في مختلف أشكالها، والعمل على خلق مجتمع ناهض تظلله ألوية الإسلام تسري في جوانبه روح التدين والتدليل بصورة عملية على أن الإسلام نظام مثالي جاء لإسعاد البشرية ولم يقتصر دور الأزهر على خطب أو دروس تلقى في المساجد، بل تعدى إلى شتى المجالات، وفي كل يوم كان يفتح ميدان جديد للدعوة، ومازالت هذه الميادين تتسع والمجالات تكثر حتى العصر الحديث بآفاقه الواسعة وميادينه المتعددة فنزل العلماء بكل ما لديهم من قوة وعلم تلبية واستجابة لداعي الخير وأصبحت ميادين الدعوة في هذه الأيام تشمل المدارس والمعاهد والنوادي والجمعيات والمعسكرات والساحات الشعبية والميادين العامة والمصانع والسجون ودور الإصلاح الاجتماعي ومؤسسات الرعاية الاجتماعية والمستشفيات والموالد والأسواق والندوات العامة والخاصة والتدريب، وفي الصحاري ووحدات الجيش المختلفة على الحدود والسواحل والقرى والنجوع والكفور وإلى جانب ذلك يقوم الأزهر بإرسال

بعثات في مناسبات خاصة تقتضيها ظروف الأمن، وكذلك في شهر رمضان والمناسبات الأخرى. وقام الأزهر بدوره في إنهاء مسلسل الثأر بين أكبر عائلتين بالجيزة ورأس شيخ الأزهر أضخم جلسة صلح عرفي في تاريخ مصر لمنع إراقة الدماء بين الأسرتين وكثيراً ما قام علماء الأزهر بدورهم الاجتماعي في مجالات شتى. فقاموا بالمصالحات وفض المنازعات ومحاربة الإجرام من سرقة وقتل وخطف، ومكافحة العصبية الطائفية والقبلية وعادة الأخذ بالثأر، والوقوف ضد المذاهب والآراء المنحرفة ومحاربة الاستغلال والإقطاع والمخدرات والقضاء على الإشاعات والأراجيف. كما يعمل الأزهر بدوره على تطهير المجتمع من البدع والخرافات والعادات الباطلة، وتوجيه الشباب إلى المثل العليا، والدعوة إلى مشروعات الخير كإنشاء الجمعيات الخيرية، ورعاية الأسرة بعلاج مشاكلها وتبصير أعضائها بواجبهم ومساعدة المنكوبين في الحرائق والسيول والكوارث الأخرى، وتثقيف المرأة وإعدادها للزوجية والأمومة السعيدة.

كما قام الأزهر بتبصير الشعب بواجبه نحو وطنه والدعاية للمشروعات الإصلاحية وتوجيه الثقافة توجيهاً بناء لخدمة المواطنين ودعم نهضة البلاد وخطة التنمية وللأزهر دور كبير في رفع الروح المعنوية عند الجنود، وفي حث الجمهور على التبرع عند الضرورة - لتسليح الجيش، وعلى الجهاد والتضحية عند الأزمات كما حدث في حرب ١٩٥٦.

دور الأزهر السياسي

لم يتخلف الأزهر عن أداء دوره السياسي تجاه مصر. فله أدوار سياسية خالدة دفع فيها الظلم والجور، وأقر العدل، ونشر الأمان، واستطاع أن يفرض على الحكام الاعتراف بحقوق الإنسان.

ومما هو جدير بالملاحظة أن أثر الأزهر في توجيه الحياة السياسية في المرحلة الأولى من حياته لم يكن عظيماً، لأن الدولة الفاطمية كانت

تحرص على سلطانها السياسي أشد الحرص، وتفرق في التمسك بعصبيتها، ولا تفسح أدنى مجال لنفوذ العلماء ورجال الدين، ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها الدينية إلا توطيد الدعوة السياسية. أما في عصر سلاطين المماليك فقد لعب الأزهر دوراً لا يستهان به في توجيه السياسة المصرية، فقد كان السلاطين يلتجئون إليه تثبيتاً لسلطانهم. أو تأييداً لهم على أعدائهم. أو رغبة في إصدار فتوى في صالحهم.

وقف الأزهر حارساً أميناً - طوال أكثر من ألف عام - يدافع عن استقلال البلاد، ويثور في وجه المعتدين على حرماتها، وبهذا كان الأزهر ملاذ مصر، كلما أصابها خطب أو دهمها عدوان، سواء في عهد العثمانيين، أو في خلال الاحتلال الفرنسي حيث كان منبر الأزهر منبر مصر، وصوت الأزهر هو صوت مصر، وكان شيوخ الأزهر ورجاله العقبة الكئود أمام طغيان الخونة من الحكام.

كما كان الأزهر يجاهد في ميدان السياسة وميدان العلم وميدان الإصلاح الاجتماعي والخلقي ولولاه لكان من الممكن أن تتأخر نهضة المسلمين الحديثة عدة قرون.

شيوخ الأزهر

لم يجر النظام على أن يعين للأزهر شيخ تعييناً رسمياً منذ أنشىء إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري. بل كان النظام المتبع هو أن ينتخب من بين كبار العلماء ناظر يشرف على شئونه. ويرى بعض المؤرخين أن هذا المنصب استعمل في منتصف القرن السابع عشر الميلادي في اجتماع عقده باشا مصر. وكان شيخ الأزهر من بين الذين حضروا هذا الاجتماع ومهماً يكن من أمر فقد أنشىء منصب شيخ الجامع في عهد الحكم العثماني ليتولى رئاسة علمائه ويشرف على شئونه الإدارية، ويحافظ على الأمن والنظام بالأزهر ... وهم :

١. الشيخ محمد عبدالله الخرشي المالكي سنة ١١٠١هـ - ١٦٩٠م.

٢. الشيخ إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين البرماوي الشافعي - سنة ١١٠١هـ - ١١٠٦هـ (١٦٩٠-١٦٩٤م).
٣. الشيخ محمد النشرتي المالكي سنة١١٠٦ - ١١٢٠هـ (١٦٩٤ - ١٧٠٨م).
٤. الشيخ عبدالباقي القليني المالكي سنة ١١٢٠هـ - ١٧٠٨م.
٥. الشيخ محمد شنن المالكي ١١٣٣هـ (١٧٢١م).
٦. الشيخ إبراهيم موسى الفيومي المالكي سنة ١١٣٣- ١١٣٧هـ (١٧٢١ - ١٧٢٥م).
٧. الشيخ عبدالله الشبراوي الشافعي سنة ١١٣٧ - ١٣٧١هـ (١٧٢٥ - ١٧٥٧م).
٨. الشيخ محمد سالم الحفني الشافعي سنة ١١٧١ - ١١٨١هـ (١٧٥٧ - ١٧٦٧م).
٩. الشيخ عبدالرءوف السجيني الشافعي سنة ١١٨١ - ١١٨٣هـ (١٧٦٧ - ١٧٦٨م).
١٠. الشيخ أحمد بن عبدالمنعم الدمنهوري الشافعي سنة ١١٨٣- ١١٩٠هـ (١٧٦٨ - ١٧٧٦م).
١١. الشيخ أحمد العروسي الشافعي سنة ١١٩٢ - ١٢٠٨هـ (١٧٧٨ - ١٧٩٣م).
١٢. الشيخ عبدالله الشرقاوي الشافعي سنة ١٢٠٨ - ١٢٢٧هـ (١٧٩٣- ١٨١٢م).
١٣. الشيخ محمد الشنواني الشافعي سنة ١٢٢٧ - ١٢٣٣هـ (١٨١٢ - ١٨١٨م).
١٤. الشيخ محمد أحمد العروسي الشافعي سنة ١٢٣٣-١٢٤٥هـ (١٨١٨ - ١٨٢٩م).

١٥.الشيخ أحمد بن علي الدمهوجي الشافعي سنة ١٢٤٥ـ ١٢٤٦هـ (١٨٢٩ـ١٨٣٠م).

١٦.الشيخ حسن بن محمد العطار سنة ١٢٤٦ـ١٢٥٠هـ (١٨٣٠ - ١٨٣٤م).

١٧.الشيخ حسن القويسني الشافعي سنة ١٢٥٠ـ١٢٥٤هـ (١٨٣٤ - ١٨٣٨م).

١٨.الشيخ أحمد عبدالجواد الشافعي سنة ١٢٥٤ـ١٢٦٣هـ (١٨٣٨ـ١٨٤٧م).

١٩.الشيخ إبراهيم البيجوري الشافعي سنة ١٢٦٣ـ١٢٧٧هـ (١٨٤٧ - ١٨٦٠م).

حدثت اضطرابات في الأزهر فظل بلا شيخ، وعين أربعة وكلاء نيابة عن الشيخ البيجوري للقيام بشؤون الأزهر. ولما توفي سنة ١٢٧٧هـ استمروا في القيام بشئون الأزهر حتى عين الشيخ العروسي.

٢٠.الشيخ مصطفى العروسي سنة ١٢٨١ـ١٢٨٧هـ (١٨٦٤ - ١٨٧٠م).

٢١.الشيخ محمد المهدي العباسي الحنفي سنة ١٢٨٧ - ١٢٩٩هـ (١٨٧٠ - ١٨٨٢م).

٢٢.الشيخ شمس الدين الإنبابي الشافعي سنة ١٢٩٩ - ١٣١٣هـ (١٨٨٢ - ١٨٩٦ م).

٢٣.الشيخ حسونة النواوي الحنفي سنة ١٣١٣ـ١٣١٧هـ (١٨٩٦ـ١٩٠٠م).

٢٤.الشيخ عبدالرحمن القطب الحنفي النواوي سنة ١٣١٧ـ١٣١٧هـ (١٩٠٠ـ١٩٠٠م).

٢٥.الشيخ سليم البشري المالكي سنة ١٣١٧ـ١٣٢٠هـ (١٩٠٠ـ١٩٠٤م).

٢٦.الشيخ علـي بن محمـد البـلاوي اسـتقال في المحرم مـن عـام ١٣٦٣هـ (١٩٠٥م).

٢٧.الشيخ عبدالرحمن الشربيني استقال سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩).

٢٨.الشيخ حسونة بن عبدالله النواوي استقال في العام نفسه.

٢٩.الشيخ سليم البشري سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).

٣٠.الشيخ محمـد أبو الفضـل الجـيزاوي من ١٤ ذي الحجة سنة١٣٣٥ إلـى ١٣٤٨هـ.

٣١.الشيخ محمد مصطفى المراغي الحنفـي من سنة ١٩٢٨ إلى أن استقال سنة ١٩٣٠م.

٣٢.الشيخ محمد الأحمدي الظواهري سنة ١٩٣٠_١٩٣٥م.

٣٣.الشيخ محمد مصطفى المراغي ... للمرة الثانية .. سنة ١٩٣٥_١٩٤٥م.

٣٤.الشيخ مصطفى عبدالرازق سنة ١٣٤٥_١٩٤٧م.

٣٥.الشيخ محمد مأمون الشناوي سنة ١٩٤٨_١٩٥٠م.

٣٦.الشيخ عبدالمجيد سليم سنة ١٩٥٠ – ١٩٥١.

٣٧.الشيخ إبراهيم حمروش سنة ١٩٥١_ ١٩٥٢.

٣٨.الشيخ عبدالمجيد سليم " للمرة الثانية " سنة ١٩٥٢_١٩٥٢.

٣٩.الشيخ محمد الخضر حسين سنة ١٩٥٢_١٩٥٤.

٤٠.الشيخ عبدالرحمن تاج سنة ١٩٥٤ – ١٩٥٨.

٤١.الشيخ محمود شلتوت سنة ١٩٥٨_١٩٦٣.

٤٢.الشيخ حسن مأمون سنة ١٩٦٤_١٩٦٩.

٤٣.الشيخ محمد الفحام سنة ١٩٦٩_١٩٧٣.

٤٤.الدكتور عبدالحليم محمود سنة ١٩٧٣_ ١٩٧٨.

٤٥.الدكتور محمد عبدالرحمن بيصار سنة ١٩٧٩_١٩٨٢.

٤٦.الشيخ جاد الحق علي جاد الحق من سنة ١٩٨٣-١٩٩٦.

٤٧.الشيخ محمد سيد طنطاوي من سنة ١٩٩٦ وحتى الآن.

* * *

الأزهر ومواكبته للعصر الحديث

تولى محمد علي حكم مصر بعد أن قام شيوخ الأزهر باختياره والياً على مصر بشرط العدالة والرجوع إلى ممثلي الشعب قبل اتخاذ أي قرار. ولي الحكم وللأزهر هذا السلطان وهذا الدور الإيجابي الذي تحدثنا عنه سابقاً. هذا وكان شأن الأزهر في عهد أسرة محمد علي مؤسسة مصرية ينظر إليها الحاكمون بريبة وخوف فهم يضعفون جناحها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولكنهم أحياناً يستكينون لسبب أو لآخر، فيقومون في الأزهر بإصلاحات أو يسمحون بأن تقام هذه الإصلاحات. وبين المد والجزر يمكن أن تعد حركة جمال الدين الأفغاني ومدرسته حداً فاصلاً بين عهدين وكان الأزهر مغلوباً في أولهما مما يلحقه بعهد التدهور، وكان في الثاني مناضلاً يحاول أن يحرز النصر والظفر في الميدان العلمي، وفي ميدان الحياة العامة.

كان الأزهر قبل جمال الدين الأفغاني ينهض أحياناً، ولكنه يتعثر حيناً، فلما جاء جمال الدين سنة ١٨٧١م والتفت حوله مجموعة من خيرة التلاميذ واستجاب له الرأي العام حدثت بالبلاد نهضة فكرية كان جمال الدين من مصادرها،وكان الوعي العام كبير الأثر فيها.

وكانت العلوم التي تدرس في الأزهر في هذه الحقبة - حسبما جاء في تقرير رسمي للأزهر هي الفقه والأصول والتفسير والحديث والتوحيد والنحو والصرف، والمعاني والبيان والبديع والعروض والفلسفة والتصوف والمنطق والحساب والجبر والمقابلة والفلك ويقول التقرير أنه بالإضافة إلى هذه العلوم المتداولة تُقرأ بالأزهر بعض علوم أخرى كالهندسة والتاريخ والموسيقى وغيرها لمن لهم قدرة على دراستها غير أنه لا يشتغل

بدراستها سوى القليل.

وأبرز الشيوخ في هذه الفترة هم : الشيخ عبدالله الشرقاوي شيخ الأزهر. والسيد عمر مكرم والشيخ مصطفى الدمنهوري والشيخ سليمان الفيومي والمؤرخ العظيم عبدالرحمن الجبرتي، والشيخ أحمد الدمنهوري، والشيخ حسن العطار.

ومن خلال هذه العوامل التي اقتضاها تيار الوعي والتقدم انتفضت مصر منذ عهد الأفغاني انتفاضة واسعة. مع أن الأفغاني لم يدرس في الأزهر إلا أن طلابه ذهبوا بأفكاره وحملوها إلى كل مكان. والفضل لذلك للوعي العام الذي ترقى لدى المصريين فما كاد صوت الأفغاني يدوي حتى التقط محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين آراءه وطوروها ونشروها، ونفي جمال الدين الأفغاني من مصر في عام ١٨٧٩. بعد أن تمكنت آراؤه في مصر أكثر مما تمكنت في مسقط رأس جمال الدين أو في أي بلد من البلدان التي زارها، وبعد ثلاث سنوات من منفاه بدأ التدخل الإنجليزي السافر وقد وقف رجال الأزهر جنباً إلى جنب مع الجيش والشعب يكافحون هذا التدخل ويصدونه وانحاز الخديوي توفيق إلى جانب الإنجليز فعزل عرابي، وأصدر شيوخ الأزهر فتوى تدين الخديوي وتقرر أنه (مارق) [(١)] عن الدين لانحيازه إلى أعداء البلاد ووقع شيوخ هذا العصر هذه الفتوى، ومن أبرزهم الشيخ الأنبابي والشيخ حسن العدوي والشيخ محمد الأشموني والشيخ يوسف الحنبلي والشيخ حسن المرصفي وغيرهم.

وعاد الاحتلال الإنجليزي فهب الأزهر لمقاومته. وكان البارودي ومحمد عبده وعبدالله النديم، من أبرز قادة التفكير والقلم في الثورة العرابية وبعد انتهاء الثورة قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها حيث قدموا للمحاكمة ومن بينهم عدد كبير من الشيوخ الذين صدرت ضدهم أحكام قاسية منها النفي والعزل والتجريد من الرتب وعلامات الشرف.

---

(١) أي خارج عن الدين.

وفي هذه الفترة صدرت عدة قوانين إصلاحية سوف نشير إليها فيما بعد.

مراحـل الإصــلاح

ظل الأزهر منذ إنشائه مركزاً عظيماً للثقافة الإسلامية والعربية يستقي من ينابيعه الطلاب من مصر والعالم الإسلامي، ويتصدر للتدريس به علماء من مصر وغيرها فلا تخلف ولا جمود ولا معاناة للتفكير، ولا معارضة للتقدم، ولكن الأزهر بدأ يتوقف منذ الفتح العثماني لمصر في عام (٩٢٣ - ١٢١٣هـ - ١٥١٧ـ ١٧٩٨م) فقد فرض العثمانيون لغتهم التركية رسمية في مصر. وصارت لغة التخاطب مزيجاً منها ومن العامية.

وقد استطاع الأزهر في ذلك الوقت أن يكون أعظم حصن للغة العربية حماها من أن تطغى اللغة التركية عليها.

فلما جاء القرن التاسع عشر. وبدأت مصر تتحرك وتتجدد وتأخذ بالنظم العلمية الحديثة. تعالت الدعوات إلى إصلاح الأزهر وإنهاضه وتنوعت الجهود التي بذلت لتحقيق هذا الغرض، ولعل رفاعة الطهطاوي هو أول من نبه إلى إدخال العلوم الحديثة بالأزهر.

وأول من بادر إلى هذا الإصلاح كان هو الشيخ محمد العباسي شيخ الأزهر أيام الخديوي إسماعيل، وكان علاماً ذكياً مستنيراً هاله أن بعض الناس يدعون العلم وهم جهال، كما أن بعضهم يتظاهر بطلب العلم فراراً من خدمة الجيش، فاستصدر قانوناً من الخديوي سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٢م) لتطوير الأزهر وإصلاحه وينظم سير الامتحان به ومواد الدراسة.

وقد أراد الشيخ بهذا القانون أن يبعد عن الأزهر العناصر التي لا تمتاز بالعلم والكفاءة.

جهود محمد عبده في الإصلاح

تتابعت جهود الإصلاح في الأزهر بقيادة الإمام محمد عبده، ولهذا كان ينادي دائماً بأن تربية الأمة وتعليمها وإعدادها للرقي خير وسيلة لضمان نهضة حقيقية قوية ثابتة ولهذا اتجه إلى إصلاح التعليم وإصلاح

وتطوير الأزهر وحاول محمد عبده إقناع شيخ الأزهر الشيخ محمد الأنبابي في ذلك الوقت بتوسيع منهج الدراسة وإدخال بعض العلوم الحديثة، ولكنه وجد معارضة شديدة فلما تولى عباس الثاني الحكم حاول أن يستعين به على الإصلاح فرفع إليه تقريراً عن الأزهر ووسائل إصلاحه، ولقي التقرير قبولاً من الخديوي فأصدر القانون في ١٧ من رجب ١٣١٢هـ الموافق ١٥يناير ١٨٩٥م - وبمقتضى هذا القانون ألف مجلس لإدارة الأزهر من أكابر شيوخه يمثلون المذاهب الأربعة ومثل الحكومة فيه الإمام محمد عبده وصديقه الشيخ عبدالكريم سلمان.

وفي الوقت نفسه عُين للأزهر وكيل متشوق إلى الإصلاح هو الشيخ حسونة النواوي - الذي عُين فيما بعد شيخاً للأزهر - وهو من العلماء المجددين والمصلحين وفي ذلك الوقت أدخلت علوم حديثة - لم تكن تدرس - كالحساب والهندسة والجبر والجغرافيا والتاريخ والخط.

وبدأت الدراسة المنظمة في الأزهر واقترح محمد عبده أن يكون الإصلاح بالتدريج، وتطوراً مع العصر يجب على الأزهر أن يدرس علوماً جديدة.

وترتب على هذه الدعوة الإصلاحية التي نهض بها الشيخ محمد عبده كثير من التغيير والتطوير في النظم الأزهرية. منها تدريس العلوم الحديثة التي كانت محرمة لا تدرس في الجامع، وتدريس علوم السلف وإن كانت من الفلسفة أو مذهب المعتزلة، ومنها العناية بالشئون الصحية للطلبة وعلاجهم بالمجان. ومنها العناية بالحضور والغياب وتحديد مواعيد للعمل والعطلة والامتحان[١]، ومنها ترتيب أجور ثابتة للمدرسين.

وتتوالى جهود الإمام محمد عبده في إصلاح الأزهر بالسعي لإصدار قانون جديد في ١٦ من المحرم سنة ١٣١٣هـ "١٨٩٥م"، بعد تعيين الشيخ حسونة النواوي شيخاً للأزهر.

---

(١) تاريخ الأستاذ محمد عبده ٣ - ٥٤١.

وعُني محمد عبده بشؤون الأزهر الإدارية، فبنى مكاتب بالقرب من الجامع بها عدد من الكُتاب لمعاونة شيخ الجامع، كما جدد أروقة الأزهر وكفل لها الشروط الصحية وأوصل إليها المياه النقية، وحول قناديل الزيت الضعيفة الضوء إلى مصابيح قوية تضاء بالبترول.

ولاحظ أن الجراية التي تصرف للمجاورين ليست كافية لغذائهم فسعى حتى رفعها من خمسة آلاف رغيف يومياً إلى خمسة عشر ألفاً.

ونظم إدارة الأوقاف والمحبوسة على الأزهر فارتفع إيرادها من أربعة آلاف جنيه إلى أربعة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين جنيهاً.

ثم قام الشيخ محمد عبده بإعداد مشروع قانون جديد آخر لتحديد اختصاص مجلس إدارة الأزهر واختصاص الأزهر وشروط قيد الطلبة ومدة الدراسة والإجازات والمواد التي تدرس وبيان علوم المقاصد (التوحيد والتفسير والحديث والفقه والأصول والأخلاق الدينية) وعلوم الوسائل (النحو والصرف والبلاغة ومصطلح الحديث والحساب والجبر والمنطق) والامتحانات للحصول على شهادة العالمية وشهادة الأهلية.

ووضعت علوم أخرى للمفاضلة بين الناجحين في العالمية للحصول على الوظائف والدرجات وهي التاريخ الإسلامي والإنشاء ومتن اللغة وتقويم البلدان ومبادىء الهندسة وكانت كلها اختيارية، كما وضعت أيضاً قواعد عامة للتدريس كالعناية بالتطبيق على علوم البلاغة والنحو واختصاص علوم المقاصد بعناية أكبر من علوم الوسائل، والاقتصار على المتون وشروحها بعبارات واضحة في السنوات الأربع الأولى.

رأى محمد عبده أن يستشار كبار الشيوخ في هذا الإصلاح ليسهل تنفيذه وتألفت لجنة الإصلاح من ثلاثين عضواً برئاسة الشيخ سليم البشري ثم قدم مشروع الإصلاح إلى الحكومة وصدر القانون في ٢٠ من المحرم سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٩م.

وبذلك صارت مشيخة الأزهر مشيخة نظامية، وكثر المتخرجون في

كل سنة كما ظهر التغيير الجوهري في مدة الدراسة فأصبحت السنة الدراسية ما بين تسعة أشهر إلى عشرة بعد أن كانت لا تتجاوز ثلاثة أشهر ونصف.

وعني مجلس إدارة الأزهر بصرف مكافأة للطلاب المتفوقين توزع عليهم في بدء العام الدراسي وكان ذلك مما شجع الطلبة على المنافسة في المذاكرة وتحصيل العلوم الأزهرية الحديثة ولا شك أن الفضل في إصلاح الأزهر يعود إلى الإمام محمد عبده. وقد احتمل في رسالته الإصلاحية هذه ألواناً من التشهير والظلم غير أنه لم يهتم بذلك.

ولما تولى الشيخ محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر في عام ١٩٢٨م تاقت نفسه إلى القيام بنهضة الأزهر فقام بجهود عظيمة على طريق الإصلاح وفتح باب الاجتهاد في العلم والدين أمام العلماء. كما قام بتنظيم مراحل الدراسة بالأزهر، ثم خلفه في مشيخة الأزهر بعده الشيخ الظواهري في عام ١٩٢٩. وقام هو الآخر بجهود عظيمة في طريق إصلاح الأزهر. وصدر قانون ذلك الإصلاح في عهده ١٣٤٩هـ - ١٥ نوفمبر ١٩٣٠م.

الأزهر والنهضة الحديثة

الأزهر عميق الصلة بالفكر العالمي، وكان طوال تاريخه يرسل من ضوئه إلى نواحي العالم وانتفع الأزهر كذلك بما ظهر في العالم من تقدم في العلوم والصناعات. فقد كان رجاله هم أعضاء المجامع التي أسستها الحملة الفرنسية على مصر، وبعد جلاء الفرنسيين وتولي محمد علي لم يجد غير شباب الأزهر يرسلهم إلى أوروبا للتزود بما فيها من ثقافة ومعرفة، وقد عاد هؤلاء فكانوا رسل نهضة ووعي بالبلاد، ومن ثم بدأت النهضة الحديثة ترسل أشعتها منذ عاد من أوروبا شباب البعثات الأولى ومنذ أن وفد جمال الدين الأفغاني إلى مصر. واجتذب إلى دروسه كثيراً من الطلاب والشباب المتعطشين إلى التحرر والإصلاح فتأثروا بتعاليمه

واستجابوا لدعوته إلى التفكير الحر والتزود من العلوم. وكان من ثمرات جمال الدين الأفغاني في مصر تلميذه الإمام محمد عبده.

وفي القرن العشرين رأى الأزهر ضرورة الوقوف على ما وصل إليه المستشرقون من تقدم في دراسة المواد ذات الصلة بالأزهر كما رأى أن ينتفع بطرق البحث التي أحرزت جامعات الغرب فيها تقدماً ملحوظاً. فأرسل عدداً من خريجيه ليلتحقوا بجامعات أوروبا وأمريكا ليظل الأزهر على صلته بالتطور الثقافي والفكر العلمي، وقد عاد كثير من هؤلاء يحملون أرقى الدرجات العلمية من هذه الجامعات وأخذوا يسهمون في رفع مستوى الفكر بالجامعة الخالدة، ولا يزال بعضهم يعمل للحصول على الدرجة العلمية التي بعثوا للحصول عليها. بعثة الشيخ محمد عبده إلى الجامعات الألمانية في سنة ١٩٣١. ثم بعثة الأزهر في عام ١٩٣٥ إلى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وفي عام ١٩٥٠ بعثة إلى إنجلترا وفي سنة ١٩٥٢ بعثة إلى فرنسا. وهناك علماء أزهريون تخرجوا في جامعات أمريكا الشمالية.

وهناك بعثات أخرى موجودة بالخارج في جامعات هامبورج وميونخ وكيل وبرلين وجامعة كوتنجن والجامعة الأمريكية بواشنطن وجامعة ميتشجان ونيويورك وجامعة جورج واشنطن وجامعة برنستون.

كذلك قام الأزهر في عام ١٩٥٤ بإنشاء مدينة البعوث الإسلامية للطلبة الوافدين الذين يفدون إلى مصر من شتى بقاع العالم لتلقي العلم في رحاب الأزهر.

هيئـــات الأزهـــر

أولاً : المجلس الأعلى للأزهر:

يرأس شيخ الأزهر المجلس الأعلى للأزهر، ويتكون من وكيل الأزهر ومدير جامعة الأزهر وعمداء الكليات وأربعة من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية ووكيل عن كل من وزارة الأوقاف والتربية والتعليم

والعدل والخزانة ومدير الثقافة والبحوث الإسلامية ومدير المعاهد الأزهرية وثلاثة أعضاء لهم خبرة في التعليم الجامعي. وللمجلس أمين عام.

اختصاصاته :

١. رسم السياسة العلمية للأزهر لخدمة الفكر الإسلامي.
٢. رسم السياسة العلمية لجامعة الأزهر.
٣. النظر في ميزانية الأزهر وهيئاته.
٤. بحث شؤون الأزهر.
٥. منح العالمية الفخرية لجامعة الأزهر.

ثانياً : مجمع البحوث الإسلامية :

هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية، وتقوم بدراسة كل ما يتصل بهذه البحوث، كما تعمل الهيئة على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي، وتنقيتها في جوهرها الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفي كل بيئة وتوضيح الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة وحمل تبعات الدعوة.

وشيخ الأزهر هو رئيس المجمع، وللمجمع أمانة عامة تتكون من الأمين العام وأمين مساعد وعدد من الموظفين.

ثالثاً : إدارة الثقافة والبحوث الإسلامية :

تختص بكل ما يتصل بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية والبحوث والدعاة واستقبال طلاب المنح وغيرهم في نطاق أغراض الأزهر، وعليها نشر مقررات المجمع وبحوثه ودراساته.

رابعاً : جامعة الأزهر :

تختص جامعة الأزهر بكل ما يتعلق بالتعليم العالي في الأزهر وبالبحوث التي تتصل بهذا التعليم أو تترتب عليه، وتعمل على حفظ

التراث الإسلامي ودراسته وتنقيحه ونشره وتأهيل عالم الدين للمشاركة في كل أنواع النشاط والإنتاج والزيادة والقدوة الطيبة وعالم الدين.

خامساً : المعاهد الأزهرية :

الغرض من هذه المعاهد الملحقة بالأزهر هو تزويد طلابها بالقدر الكافي من الثقافة الإسلامية. هذا بجانب المعارف والخبرات التي يتزود بها أقرانهم في المدارس الأخرى والمماثلة ليخرجوا إلى الحياة مزودين بوسائلها. والغرض من هذه المعاهد أيضاً إعداد الطلاب للدخول والالتحاق بجامعة الأزهر.

النهضة التوسعية للأزهر

ولقد قام الأزهر في الفترة الأخيرة بإنشاء معاهد ابتدائية وإعدادية وثانوية جديدة تغطي مصر كلها - بنين وبنات - نظراً للإقبال الهائل في مصر والعالم العربي والإسلامي على دراسة الدين وعلومه وما دعا إليه من معارف مختلفة. وذلك للاقتناع التام بأن الإسلام هو الرسالة العامة الخالدة التي تسمو بالبشرية - روحاً ووجداناً - في الدنيا والآخرة إلى درجات الكمال النفسي.

ونظراً لهذا الإقبال وتلك الرغبة كان لابد من إنشاء العديد من الجامعات والكليات في مختلف الأقاليم والمدن، تيسيراً على أبناء مصر والعالم الإسلامي الذين يفدون إلى أزهرهم في مصر لينهلوا من معارفه، ويتفقهوا في دينهم ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم مزودين بالدراسات المتنوعة قرآناً وسنة ولغة وطباً، وهندسة وفلكاً، صيدلة واقتصاداً وغيرها من المعارف والعلوم المختلفة.



قم. في فم الدنيا وحي الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدر إن فصلته في مدحه خرز السماء النيرا
وأذكره بعد المسجدين معظما لمساجد الله الثلاثة مكبرا
واخشع ملياً، واقض حق أئمة طلعوا به زهراً وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة وأعز سلطاناً وأفخم مظهرا
زمن المخاوف، كان فيه جنابهم حرم الزمان، وكان ظلهم الذرا
من كل بحر في الشريعة زاخر ويريكه الخلق العظيم غضنفرا
لا تحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيء منكرا
ولو استطاعوا في المجامع، أنكروا من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض في القديم وهدمه وإذا تقدم للبناية قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة والعلم نزرا والبيان مثرثرا

* * *

يا معهداً أفنى القرون جداره وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نوره وأضاء أبيض لجها والأحمرا
وأتى الزمان عليه يحمي سنة ويذود عن نسك ويمنع مشعرا
في الفاطميين انتمى ينبوعه عذب الأصول كجدهم متفجرا
عين من الفرقان فاض نميرها وحيا من الفصحى جرى وتحدرا
ما ضرني أن ليس أفقك مطلعتي وعلى كواكبه تعلمت السرى

لا والذي وكل البيان إليك، لم أك دون غايات البيان مقصرا
لما جرى الإصلاح قمت مهننا باسم الحنيفة بالمزيد مبشرا
نبأ سرى، فكسا المنارة حبرة وزها المصلى واستخف المنبرا
وسما بأروقة الهدى فأحلها فرع الثريا، وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقات، فانفرجت له حلقا كهالات السماء منورا
حتى ظننا الشافعي ومالكا وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا
إن الذي جعل العتيق مثابة جعل الكناني المبارك كوثرا
العلم فيه مناهلاً ومجانيا يأتي له النزاع يبغون القرى

❋ ❋ ❋

يا فتية المعمور، سار حديثكم ندا بأفواه الركاب وعنبرا
المعهد القدسي كان نديه قطباً لدائرة البلاد ومحورا
ولدت قضيته على محرابه وحبت به طفلاً وشبت معصرا
وتقدمت تزجى الصفوف، كأنها "جاندرك" في يدها اللواء مظفرا

❋ ❋ ❋

هزوا القرى في كفها ورقيمها انتم لعمرو الله أعصاب القرى
الغافل الأمي ينطق عنكمو كالببغاء مردداً ومكررا
يمسي ويصبح في أوامر دينه وأمور دنياي بكم مستبصرا
لو قلتم اختر للنيابة جاهلا أو للخطابة " باقلا " لتخيرا
ذكر الرجال له، فأله عصبة منهم، وفسق آخرين وكفرا
آباؤكم قرأوا عليه ورتلوا بالأمس تاريخ الرجال مزورا

❋ نظم أحمد شوقي هذه القصيدة سنة ١٩٣٤ عندما نودي بإصلاح الأزهر.

الأزهر الشريف	تأليف : د. محمد علي حسن زينهم
الأزهر في ألف عام	تأليف : د. أحمد محمد عوف
مساجد ومعاهد	تأليف : دار الشعب
العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها	تأليف : السيد عبدالعزيز سالم
المسجد في الإسلام	تأليف : محمد توفيق بلبع
دور المسجد في بناء الجماعة الإسلامية	تأليف : د. حسين مؤنس
أضواء على رسالة المسجد	تأليف : محمد أحمد العزب
الأزهر تاريخ ورسالة	تأليف : الهيئة العامة للاستعلامات المصرية
الأزهر	تأليف : عبدالرحيم فودة
صور من دور الأزهر	تأليف : عبدالعزيز محمد الشناوي
تاريخ الأزهر في ألف عام	تأليف : سنية قراعة .
قصة الأزهر رحاب العلم والإيمان	تأليف : دار الهلال
جامع الزيتونة ومدارس العلم	تأليف : الطاهر المعموري
الدور السياسي للأزهر	تأليف : د. ماجدة علي صالح ربيع
مساجد القاهرة ومدارسها	تأليف : د. أحمد فكري

* * *



المؤلف في سطور



* كاتب صحفي بدار الهلال الصحفية.
* عضو نقابة الصحفيين.
* عضو اتحاد الكُتاب والأدباء.
* كتب في عدة جرائد ومجلات مصرية وعربية منها:

- مجلات (الهلال - المصور - حواء - الكواكب - طبيبك الخاص).. بمصر.

-مجلة الرابطة - جريدة العالم الإسلامي.. عن رابطة العالم الإسلامي بالسعودية.

* حصل على الميدالية الذهبية وشهادة التقدير في مهرجان القراءة للجميع من السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس جمهورية مصر العربية.. تقديراً لإثرائه المكتبة العربية بمؤلفاته الفكرية.

المؤلفات التي صدرت له:

* «**موسوعة الفكر الإنساني**» في عشرة أجزاء [أربعة مجلدات].. صدرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب في سلسلة الألف كتاب الثاني.
* «**فاتنات وأفاعي**».. صدر في سلسلة كتاب الهلال عن مؤسسة دار الهلال الصحفية.
* «**فاتنات الدنيا وأفاعي الزمان**».. والكتاب طبعة جديدة للكتاب السابق بعد أن زُودت فصوله - صدر عن دار الكتاب العربي، القاهرة/ دمشق.

* «**عظماء ومشاهير معاقون غيّروا مجرى التاريخ**». . صدر عن دار الكتاب العربي، القاهرة/ دمشق.
* «**حصاد الفكر الإسلامي**» عشرة كتب إسلامية غيّرت الفكر الإسلامي (الجزء الأول)، صدر عن دار الكتاب العربي، القاهرة/ دمشق.
* «**كتب غيّرت الفكر الإنساني**». . صدر في سلسلة مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
* «**موسوعة عباقرة الحضارة العلمية في الإسلام**» صدر عن مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع - المدينة المنورة/ السعودية.
* «**المساجد الجامعة في الإسلام التي ساهمت في تكوين الحضارة الإسلامية**» صدر عن مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع - المدينة المنورة ٢٠٠٦م.
* «**المدينة المنورة ودولة الإسلام الأولى**» صدر عن مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع - المدينة المنورة ٢٠٠٦م.

المؤلفات التي لم تصدر بعد:

* «موسوعة الخالدين من أعلام الفكر» [٢ مجلد].
* «الفاروق عمر بن الخطاب وأثره في تقدم الفكر الإنساني».
* «كتب هزت وطناً وكتب أحدثت ضجة».
* «مع الأئمة الأربعة المجتهدين عبر الزمان».
* «معالم الطريق لتربية الناشئين. . التربية المثالية في الإسلام».
* «الأمن والسلام في الإسلام».

فهرس المحتويات

الباب الرابع:

الجامع الأعظم بقرطبة أعظم جامعة إسلامية

الباب الخامس:

جامعة القرويين أقدم جامعة في العالم

الباب السادس:

الأزهر الشريف منارة الثقافة الإسلامية